المقتبس

الجزء السادس من المجلد الثاني

جمادى الثانية سنة ١٣٢٥ الموافق يوليو (تموز) سنة ١٩٠٧

الهجرة الى مصر

اذا كان اصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين اقاربي

دحا الله الارض ليعيش عليها البشر ويتناسلوا فيها فيعمروها ويحيوا مواتها ويسيطروا على المخلوقات كلها فالارض هي المنزل العام يجلس اهله في اي ناحية منهُ احبوها وراقتهم وينتقلون في بقاعها واصقاعها وهادها ونجادها وسهلها وحزنها وبحرها وبرها على حسب ما تقضي احوال الصحة وطبائع الاجسام وخواص النفوس .

فقد هاجر الفينيقيون قديماً واقاموا قرطجنة وعمروها وغيرها من شواطىء البحر الرومي وهاجر القوط من جرمانيا الى جنوبي اوربا وداهموا المملكة الرومانية وهاجر الروم من بلادهم الى شواطىء البحر المتوسط وجزره وشواطىء البحر الاسود وبلاده وعمروها . وكثير من الامم امثالهم غادروا مساقط رؤوسهم واتخذوا لهم بلاداً ثانية استعمروها .

وهاجرت في العهد الحديث امم كثيرة واهمُّ هجرة وقعت هجرة الاوربيين الى اميركا عمروها بجنسهم الابيض بعد ان كانت خربة بالجنس الاسود . وكذلك هجرة الهولانديين الى جنوبي افريقية وهجرة الروس الى سيبيريا وهجرة القاقاسيين والجراكسة الى البلاد العثمانية وهجرة الاسرائيليين من بلاد روسيا وهجرة المسلمين الروسيين الى اميركا وغيرهم .

وللعرب حظ وافر من الهجرة والتنقل في الجاهلية والاسلام بل ان الهجرة من طبيعة جزيرتهم يعمدون اليها طلباً للكلأ والمراعي او للاتجار بنتائج مواشيهم وحاصلاتها . واول هجرة في الاسلام كانت هجرة عشرة من الصحابة واربع نسوة وقيل اكثر امرهم الرسول

بالهجرة الى الحبشة لما رأى ما يصيبهم من البلاء قائلاً لو خرجتم الى ارض الحبشة فان فيها ملكاً لا يظلم احد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما انتم فيه فخرجوا ثم عادوا بعد سنين . وهكذا هاجرت العرب الى قارص رمصر والشام وافريقية والاندلس والسند وكشغر لما ذكرت . ولولا اقدامهم على الهجرة ما رأينا الاسلام منتشراً في قلب آسيا وافريقية .

ولا تزال الى اليوم نشهد اثراً من آثار حب العرب للهجرة وقد زادها اليوم قرب المواصلات وسهولة السفر . نرى اهل حضرموت في جنوبي الجزيرة يهاجرون الى حيدر آباد الدكن الهندية فيكون معظم جيش البلاد منهم ونراهم يهاجرون الى جاوة فيكثر فيها سوادهم وينتشي بعض افرادهم . ونرى النجديين يهاجرون الى الهند في التجارة ثم يستوطنونها ويصبحون فيها اصحاب كلمة ونفوذ . ونشهد السوريين يهاجرون الى اميركا وافريقية فيرتاشون ويتأثلون .

وانهيال السوري على هذا القطر خاصة قديم جداً يصعب تعيين زمنه لاتصاله ببلاد الشام براً وبحراً ولم تكن القوافل في الاسلام تنقطع في البر كما ان المراكب لم تكن تنقطع عن السفر في البحر ولم تبرح بلاد الشام مصيف مصر واحداها مكملة لعمران جارتها . وقد وصف ابن فضل الله العمري في التعريف بالمصطلح الشريف طريق القوافل بين القطرين كما عقد القلقشندي في صبح الاعشى فصلاً في مراكب الشحن الواصل من البلاد الشامية الى الملوك بالديار المصرية . ومصر ما برحت كما وصفها ابن خلدون في القرن الثامن (بستان العالم ومحشر الامم ومدرج الذر من البشر) .

نعم هي محشر الامم ولا سيما الامم المجاورة لها من البر او المناوحة لها من سيف البحر . وذلك لان عمرانها طبيعي مستجر في معظم ادوارها فلا عجب اذا كانت مهاجر الامم من عرب وعجم قبل ان تكون نقطة الاتصال بين قارات اوربا وافريقية وآسيا بفتح ترعة السويس فما بالك بعد ان تم لها ذلك .

فمصر والحالة هذه مقصودة من اقطار الارض اكثر مما يقصد اهلها سائر الاقطار والامة التي تكثر في الغالب خيرات بلادها لا يهون عليها مغادرتها . وطلب الحاجيات هو الباعث الاقوى على المهاجرة فاذا كفيها المرء يصاب بالوناء وضعف العزائم .

وما فتيء السوريون والروم والترك والمغاربة مذ كانت حكوماتهم تتغلب على مصر ينزلون بلاد النيل . فالروم حكموها زمناً طويلاً وكذلك الترك والعرب والجراكسة فكان من هذه العناصر ان نزلتها بكثرة واصبح اكثرهم فيها عمالاً وحكاماً وقضاة ورؤساء جند وعلماء وارباب صنائع وتجارة ولم تكثر هجرة الاوربيين اليها الا عقيب الاحتلال الفرنسوي عند

ما بدأ الفرنسيس والطليان والمجر وغيرهم من امم الغرب يهبطون اليها رقد كثر سوادهم على عهد الخديوي اسمعيل لانه فتح امامهم طرق الهجرة واحسن معاملتهم ووفر لهم المغانم وطرق الكسب .

ولما قبض رجال الاحتلال من الانكليز على ازمة الاعمال اخذ الناس يفدون على مصر من كل فج عميق حتى انك تجد فيها الآن من جميع الشعوب واللغات اناساً اسسوا فيها الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية وكثير منهم اغتنوا من خيراتها بفضل كدهم . وقد قدرت ثروة السوريين فيها بخمسين مليون جنيه اي بعشر ثروة القطر وهكذا سائر الامم ولا سيما الروم والطليان والفرنسيس فان فيها من هذه الاجناس ألوفاً اغتنوا من خيراتها واتخذوها دار هجرتهم ووطناً ثانياً لهم . وحال مصر اليوم مع المهاجرين اليها يختلف عن حالها مع امثالهم في القرن الماضي لان ثقة الأمم تزداد بها الحين بعد الآخر ولان الاساس الذي قامت عليه حضارتها اليوم اساس مالي زراعي . خصوصاً وقد ظهرت الآن نتائج ما تعب القابضون على ازمة سياستها سنين في تأسيسه واشتهر ذلك عند الخاص والعام في الاقطار النائية بما يتصل بهم من اخبارها واخبار من يغتنون من المهاجرين اليها ممن توفرت لديهم رؤوس اموال او كانوا من ارباب العقل والعمل فكانت مصر ميداناً لظهور آثارها . وربما لا يذكر الناس الا من نجحوا وقلما يذكرون من اخفقوا . عادة في البشر ولعلها من موجبات اقدامهم على الكسب والكدح في هذه الدار .

ولقد ساعد على كثرة الهجرة اليها حال بعض البلاد المجاورة لها من حيث اجتماعها ومادتها . فترى سكان جنوبي ايطاليا القاحلة يهاجرون اليها اكثر من القاطنين في الشمال منها لان شمالي ايطاليا مخصب واهلها مكتفون بما تجود به عليهم ارضهم وسماؤهم . وكذلك تكثر اليها هجرة سكان جزائر البحر الرومي ولا سيما بلاد اليونان الجدبة واهل سواحل الشام وجبالها .

هذه مصر من حيث هي مهاجر الامم فهي دولية كما يقول الساسة او مشتركة بين اجناس واديان شتى . والتاريخ يشهد انها كانت رحبة الصدر بالوافدين عليها في كل العصور للين عريكة اهلها ولم يحدث هذا التمييز بين سكانها الا عندما اراد مهاجرو الافرنجة ان يستطيلوا على اهلها فاحدثوا لهم ما يقال له « الامتيازات الاجنبية » التي تخولهم من الحقوق ما ليس للوطني مثله ثم كثر توارد الاخلاط عليها ولم يكن الوافدون اليها على غرار واحد بل كان منهم المتورون العالمون وهم افراد . ومنهم المتعلمون المهذبون وهم اكثر . ومنهم العامة الاميون وهم السواد الاعظم . ومعظمهم طلاب رزق وسوقة نازعوا ابن البلاد وربما غلبوه لان من جاء في طلب غرض يحتال للوصول اليه . والغريب في الغالب يكون اجرأ وانشط من الاصيل لان الغربة في ذاتها امارة من امارات النشاط

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

والامثلة كثيرة في هذا الباب من القديم والحديث فليس للوافد ما للباعد من الخمول والاتكال ويكفي ان في لندرا لهذا العهد وهي مهد الصناعات والارتقاء زهاء مائتي الف رجل من رجال الالمان استولوا على اعمالها المالية واستأثروا بها دون ابن البلاد المسلم المنور الذي لا يقل عنه في مواهبه هذا في عاصمة انكلترا فما الحال بمصر واكثر الوافدين اليها هم من الشعوب القوية ومن اهل البلاد الباردة التي تبعث النشاط في قلوب ابنائها واجسامهم وعقولهم فيتخذون عدتهم استعدادهم وكدهم رأس مالهم وعتادهم وذخرهم قصدهم واقتصادهم على حين قد اتت على الوطني ازمان من الفوضى ضعفت بها قواه فاعيا لا يقوى على العمل الا اذا عوده زمناً ولقنه بالتعليم والتربية وقد فاجأته الثروة والحرية مفاجأة بهرته وحيرته ثم ان ابن البلاد في الغالب لا يسف الى المكاسب التي يتنازل اليها الغريب فالاول يذل بأرومته ويعتز بأمته والثاني يذل في سد حاجته ونيل بغيته .

ولما رأت الحكومة المصرية على عهد الوزارة الرياضية ان الوطني يكاد يفنى في الدخيل سنت لائحة صعبت فيها على النازل في مصر اسباب الحصول على حقوق الوطني الا بعد مقامه خمس عشرة سنة واشعاره الحكومة بعزمه على تغيير جنسيته قبل حلول الوقت المعين بخمس سنين فكانت هذه اللائحة غريبة في بابها منعت بعض الطراء على القطر من ولوج باب الاستخدام في دواوين الحكومة وحظرت عليهم تعاطي الاعمال الادارية والسياسية الا انها صرفت وجهتهم الى اتخاذ الاعمال التجارية والزراعية والمالية والعلمية الحرة فافلحوا اكثر مما لو كانوا حصروا وكدهم في الوظائف الاتكالية ولم تحق عليهم كلمة « مصر للمصريين » . ومن هنا نشأ بغض كثير من المصريين للغرباء . كان السبب في ذلك اولاً منافسة هؤلاء لابناء البلاد في احتياز الوظائف وساعد عليها ما ألقنه بعض الجرائد المسموعة الكلمة من عبارات التفرقة وهناك اسباب اخرى قواها ارباب الاهواء والغايات فانتقلت بالتقليد الى العامة ومن نحا منحاهم من الخاصة .

وليست الشكوى التي يشكوها بعض الوطنيين من الوافدين في محلها كلها لان من اغتنى بكده او بطرق غير شريفة فانما غنمه له وغرمه عليه . ولو تسنى لابن البلاد ان يعمل عمله ما تأخر . وياليت خاصة هذه البلاد يسعون الى نزع هذه الاوهام من عقول العامة حتى لا يبغضوا غيرهم بسبب وبلا سبب ويمتزج بعضهم مع بعض لتجيل بودقة مصر ذاك الدخيل الى المعدن الذي تريد ان يكونوا كلهم عليه . فقد ثبت ان هذه البودقة المصرية احالت اليها فيما مضى التركي والجركسي والكردي والحجازي واليماني والعراقي والشامي

والمغربي والسوداني والرومي والفارسي فاتى منهم بعد مقامهم قليلاً في هذا الوادي مصريون يغارون على مصلحة مصر وكثير منهم نفعوها وخدموها بعقولهم وايديهم اكثر من خدمة ابنائها لها تحت اسم مصريين .

وما نيل كانت بقعة من الارض معلومة الحدود والمساحة وقفاً على جنس خاص من البشر لا ينازعها فيه منازع تسرح وتمرح فيها ما شاءت . فالارض ارض الله والناس عباد الله وما احلى بيت البحتري في هذا المعنى

ولا تقل أُمم شتى ولا فرقٌ فالارض من تربة والناس من رجل

وكل من نظر في نهوض الأمم لا يعتم ان يرى بان كل امة ريبت على كره غيرها وتجافت عن الاختلاط به وحسن الانتفاع منه تجني من الخسارة اكثر من الربح . ولقد كانت بغداد من اكبر امثلة التسامح في البلاد الاسلامية رفعت مقام الغريب واحسنت الاستفادة منه فكان يعد بغدادياً كل من دخل بغداد . تساوى في ذلك عجميها وديلميها وعربيها وتركيها ونسطوريها ورروميها ومجوسيها ومسلمها فجمع العدل من شملهم وآخت الراحة بينهم وعد سواء في النسبة اليها من نزلها اليوم ومن نزلها منذ قرن وقد اعان على تكوين هذا المزيج انتفاء الجنسية في الاسلام ورفق المسلمين باهل ذمتهم ولولا ذلك ما قامت تلك الحضارة التي نسبت للمسلمين العرب مع ان اثرهم فيها اقل من اثر غيرهم من الاجناس والاديان . ولكن العمل مشترك وهو منسوب لصاحب البيت كالجنود يشقون في الحرب ثم ينسب النصر لقائدهم .

وانا لا نزال نقول ان من حظ مصر ان تكون البلاد المجاورة لها محتاجة اليها حتى اشبهت فاس في القرون الوسطى لما تواترعيث العرب على القيروان واضطربت قرطبة بانتلاف بني امية بعد موت محمد بن ابي عامر وابنه فرحل من قرطبة ومن القيروان من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فنزل اكثرهم مدينة فاس قال صاحب المعجب في الثلث الاوّل من المئة السابعة ان فاس اليوم على غاية الحضارة واهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلت اسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا ذلك وقال ان القيروان كانت منذ الفتح الى ان خربها الاعراب دار العلم بالمغرب اليها ينسب اكابر علمائه واليها كانت رحلة اهله في طلب العلم فلما استولى عليها الخراب تفرق اهلها في كل وجه فمنهم من قصد مصر ومنهم من قصد صقلية والاندلس وقصدت منهم طائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس .

قصدوا فاس كما قصد الاندلسيون بلاد مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والشام لما تأذن

الله بانقراض دولتهم نعديا من اهلها بل كما رحل الايطالي والالماني والاسباني والانكليزي والفرنسوي الى اميركا لما ضاقت سبل الرزق في وجوههم فصاروا اميركيين وانشأوا يخدمون اميركا اكثر من خدمتهم لبلادهم حتى اذا تناسلوا فيها جاء اولادهم اميركيين صرفاً . وكلما ارتقت الأمم تتطلع الى ادماج غيرها في مجموعها والأمم الافرنجية اليوم اكثر تسمحاً في هذا المعنى من الأمم الشرقية كما يظهر بالاستقراء .

قال ابن حزم الاندلسي : ان جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة احد بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك متفقون على ان ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى ان مات فان ذكروا الكوفيين من الصحابة (رض) صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة (رض) وانما سكن علي الكوفة خمسة اعوام واشهراً (قال ابن حجر صوابه اربعة اعوام) وقد بقي ٥٨ عاماً واشهراً بمكة والمدينة شرفها الله تعالى وكذلك ايضاً اكثر اعمار من ذكرنا وان ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين وانس ابن مالك وهشام بن عامر وابي بكرة وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن اكثرهم واكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف وجمهرة اعمارهم خلت هنالك وان ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وابي الدرداء وابي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية والامر في هؤلاء كالامر فيمن قبلهم وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي وفي المكيين عبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا فيمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به وهو منا بحكم جميع اولي الامر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا الى غيرنا فلا حظ لنا فيه والمكان الذي اختاره اسعد به

فضل العربية

كتب مستشار معارف مصر فصلاً لخص فيه اللغة العربية من مزاياها نشر في آخر تقرير عميد الاحتلال عن السنة الماضية قال فيه : ان تعليم العلوم بالانكليزية في المدارس الاميرية بمصر لا مناص منه الآن لعدم وجود الكتب اللازمة والاساتذة الاكفاء لان اللغة العربية فقيرة في تركيب الجمل العلمية وبالنظر لجمودها والتباس تراكيبها لا تستطيع ان تكون لسان حال العلم والتدريس وانه ليس فيها شيء من روح الادبيات الحديثة وان احسن الترجمات لا تتوصل الى نقل فكر المؤلف الا مشوهاً اذا ارادت نظارة المعارف ان تعتمد على ما يترجم من اصناف العلوم الى العربية وقد وقع كلامه موقعاً سيئاً في نفوس العارفين بخصائص العربية ولما كان اكثر ما كتبه مما له دخل بسياسة هذا القطر رأينا ان ننقل للقراء زبدة ما ساجلناه به ثم نردف ذلك بفصل في فضل اللغة (١) لاحد علماء المئة الخامسة .

فقد قلنا ان لغة في معاجمها المطبوعة ثمانون الف مادة وكل مادة يشتق منها عشر الفاظ هي بلا شك من اللغات الواسعة وقد وسعت العلوم في العصر الذي لم تكن تستبر فيه لغة علم اي في عهد المأمون العباسي وبعده فنقلت اليها علوم الفرس واليونان والرومان والهند في وقت كانت لغة بدوية فكيف لا يتسع صدرها لهذه العلوم الآن وهي لغة علم منذ الف سنة هذا مع ان بعض العلوم من اختراع العرب كالجبر مثلاً فانهم وضعوا قواعده ودوّنوا كتبه ونقله الاوربيون عن العرب فاللغة التي اخترع بها ودوّن بها ودرس بها لا تضيق عنه اليوم وهي هي وهو هو . ولا تزال العلوم الرياضية هي اياها منذ اوائل نشأتها وان زادت بعض نظريات او تمرينات فالكتب المؤلفة كافلة لتدريسها اما العلوم الطبيعية فان ما يدرس في المدارس لا يتجاوز ما وضع له من الكتب بالعربية في القرن الماضي وتسهل زيادة ما زاد منها وتعريب ما يصدر منها الحين بعد الآخر في بلاد الغرب . واستشهدنا له بقول احد رجال الفرنسيس الذي نصح للمصريين ان يحتفظوا بلغتهم ويتعلموا احدى اللغات الاجنبية معها كما فعل المجر والتشك والبولونيون ولا غنية للانسان الآن عن تعلم عدة لغات اجنبية هذا فضلاً عن لغة واحدة كالانكليزية او الافرنسية او الالمانية .

---

(١) نشرنا في جريدة المؤيد ثلاث مقالات في هذا المعنى وقد استخرج هذا الفصل من كتاب سرّ الفصاحة لابي محمد عبدالله بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦ للشيخ احمد عمر المحمصاني الازهري

اما الفصل في فضل العربية فها هو بنصه : اللغة عبارة عما يتواضع القوم بينهم به من الكلام او يكون توقيفاً يقال في لغة العرب ان السيف القاطع حسام اي تواضعوا على ان سموه هذا الاسم وتجمع لغة على لُغَات ولُغِين ولُغُون وقد قيل في اشتقاقها انها مشتقة من قولهم لغيت بالشيء اذا اولعت به واغريت به وقيل بل هي مشتقة من اللغو وهو النطق ومنه قولهم سمعت لواغي الناس اي اصواتهم ولغوت اي تكلمت واصلها على هذا لغوة على مثال قُعلة (الى ان يقول في فضيلة اللغة العربية ومزيتها) : فاما ما نحن بصدده من ذكر اللغة العربية فلا خفاء بميزتها على جميع اللغات وفضلها اما السعة فالامر فيها واضح . ومن تتبع جميع اللغات لم يجد فيها لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الاسماء للمسمى الواحد على ان اللغة الرومية بالضد فان الاسم الواحد وجد فيها للمسميات المختلفة كثيراً وقد كان بعض اللغويين حصر اسماء الاسد في لغة العرب فكانت اوراقاً عدة . وهي مع هذه السعة والكثرة اخصر اللغات في ايصال المعاني في النقل اليها يبين ذلك انهُ ليس كلام ينقل الى لغة العرب الاَّ ويجيء الثاني اخصر من الاوَّل مع سلامة المعاني وبقائها على حالها وهذه بلاشك فضيلة مشهورة وميزة كبيرة لان الغرض في الكلام ووضع اللغات بيان المعاني وكشفها واذا كانت لغة تفصح عن المقصود وتظهره مع الاختصار والاقتصار فهي اولى بالاستعمال وافضل مما يحتاج فيه الى الاسهاب والاطالة . وقد خبرني ابوداود المطران وهو عارف باللغتين العربية والسريانية انه اذا نقل الالفاظ الحسنة الى السرياني قبحت واذا نقل الكلام المختار من السرياني الى العربي ازداد طلاوة وحسناً . وهذا الذي ذكره صحيح يخبر به اهل كل لغة عن لغتهم مع العربية . وقد حُكي ان بعض ملوك الروم واظنه تيفور سأل عن شعر المتنبي فأُنشد لهُ

كأن العيس كانت فوق جفني مناخات فلما ثرن سالا

وفسر له بالرومية فلم يعجبه وقال كلاماً معناه ما اكذب هذا الرجل كيف يمكن ان يكون جمل على عين انسان . وما احسب ان العلة فيما ذكرته غير النقل الى اللغة العربية ومنها وتباين ذلك الا ان لغتنا فيها من الاستعارات والالفاظ الحسنة الموضوعة ماليس مثله في غيرها من اللغات فاذا نقلت لم يجد الناقل ما يتوصل به الى نقل تلك الالفاظ المستعارة بعينها وهي على هيئتها لتعذر مثلها في اللغة التي ينقل اليها والمعاني لا تتغير فتنقلها ممكن من تبديل وكان ما ينقل من العربية فتغير حسنه لهذه العلة وما ينقل اليها يمكن الزيادة على طلاوته لان ناقله يجد ما يعبر به في العربية افضل مما يريد وابلغ مما يحاول وهذا وجه يمكن ذكر مثله ويجب ان يتأمل وينظر فيه لاني لا اعرف لغة سوى العربية انما ذهبت اليه ظنّ

وحدسًا . وقد تصرف في هذه اللغة مالم اظنه تصرف في غيرها من اللغات فلم توجد الاّ طيعةً عذبة في كل ما استعملت فيه نظمًا ونثرًا وهي الى الآن لا تقف على غاية في ذلك ولا تصل الى نهاية كما قال ابو تمام في هذا المعنى * اذا انجلت سحائب منه اعقبت بسحائب * وقد بينت فضلها وما فيها من الاختصار في العبارة عن المعاني وذكرت وجه التفضيل بالاختصار مما لا شبهة فيه . فاما السعة فالامر فيها ايضًا واضح لان الناظم والناثر اذا حظر عليه موضع ايراد لفظة وكانت اللغة التي ينسج منها ذات الفاظ كثيرة تقع موقع تلك اللفظة في المعنى اخذ ما يليق بالموضع من غير عنت ولا مشقة . وهذا غير ممكن لولا السعة في كثرة الاسماء للمسمى الواحد وتلك فائدة حاصلة بلا خلاف على انه ربما عرض في وضع الاسماء المشتركة فائدة في بعض المواضع مثل ان يحتاج الناطق الى كلام يؤثر ان يكني فيه ولا يصرح فيقول لفظة ويوهم بها معنى قد قصد غيره وهذا وان قل الداعي اليه الاّ في اليسير من المواضع فلم تجعل اللغة العربية خالية منه بل فيها اسماء مشتركة كقولهم عين وما اشبهها . وهاهنا لها فضيلة اخرى وهي ان الواضع لما ان كانت مواضعة تجنب في الاكثر كل ما يثقل على الناطق تكلفه والتلفظ به كالجمع بين الحروف المتقاربة في المخارج وما اشبه ذلك واعتمد مثل هذا في الحركات ايضًا فلم يأت الاّ بالسهل الممكن دون الوعر المتعب ومتى تأملت الالفاظ المهملة لم تجد العلة في اهمالها الا هذا المعنى وليس غيرها من اللغات كذلك كلغة الارمن والزنج وغيرهم

ومما يدل على فضل هذه اللغة العربية وتقدمها على جميع اللغات ان اربابها واصحابها وهم العرب الذين لا امة من الامم تنازعهم فضائلهم ولا تباريهم في مناقبهم ومحاسنهم وان كانوا تواضعوا على هذه اللغة فلم تكن لتنتج اذهانهم الصقيلة وخواطرهم النجيبة الاّ شيئًا خليقًا بالشرف وامرا جديرًا بالتقدم وان كان توفيقًا من الله تعالى لهم ومنة منّ بها عليهم اه

وقال ابن حزم(١) : لا ننكر اصطلاح الناس على احداث لغات شتى بعد ان كانت لغة واحدة وقفوا عليها بها علموا ماهية الاشياء وكيفياتها وحدودها ولا ندري اي لغة هي التي وقف آدم عليه السلام عليها اولاً الا اننا نقطع على انها اتمّ اللغات كلها وابينها عبارة واقلها اشكالاً واشدها اختصارًا واكثرها وقوع اسماء مختلفة على المسميات كلها المختلفة من كل ما في العالم من جوهر او عرض لقول الله عز وجل وعلم آدم الاسماء كلها فبهذا التأكيد يرفع الاشكال ويقطع الشغب فيما قلناه وقد قال قوم هي السريانية وقال قوم هي العبرانية

(١) منقولة من كتاب الإحكام في اصول الأحكام وهو من المخطوطات المحفوظة في خزانة كتب السيد احمد بك الحسيني

رتال قوم هي العربية والله اعلم الا ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقيناً ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة اهل القيروان ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي ومن الخراساني اذا رام نغمتهما ونحن نجد من سمع لغة اهل قبرص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة اهل البلدة لاخرى يتبدل لغتها تبدلاً لا يخفى على من تأمله ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلاً وهو في البعد عن اصل تلك الكلمة كلغة اخرى ولا فرق فتجدهم يقولون في العنب العينب وفي السوط إسطوط وفي ثلاثة دنانير ثلثدا واذا تعرب البربري فاراد ان يقول الشجرة قال التجرة واذا تعرب الجليقي ابدل من العين والحاء هاء فيقول مهمد اذا اراد ان يقول محمد ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا من تبدل ألفاظ الناس على طول الازمان واختلاف البلدان بمجاورة الامم وانها لغة واحدة في الاصل واذ قد تيقنا ذلك فالسريانية اصل للعربية وللعبرانية معاً والمستفيض ان اول من تكلم بهذه العربية اسمعيل عليه السلام فهي لغة ولده والعبرانية لغة اسحق ولغة ولده والسريانية بلا شك هي كانت لغة ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم بنقل الاستفاضة الموجب لصحة العلم والسريانيه اصل لهما وقد قال قوم ان اليونانية ابسط اللغات ولعل هذا انما هو الآن فان اللغة يسقط اكثرها وتبطل بسقوط دولة اهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم او بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فانما يقيد لغة الامة وعلومها واخبارها قوة دولتها ونشاط اهلها وفراغهم واما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واستغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة اعدائهم فضمون منهم موت الخواطر وربما كان ذلك سبباً لذهاب لغتهم ونسيان انسابهم واخبارهم ويبود علومهم هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة ولدولة السريانيين مذ ذهبت وبادت آلاف من الاعوام في اقل منها ينسى جميع اللغة فكيف لغلت اكثرها والله اعلم .

اصل لفظ كعبة ومكة وكربلاء

نشر احد الكاتبين في بعض المجلات العلمية ما صورته :

سألتكم عن اصل كعبة ومكة فاجبتم ان الاسم كعبة محرف من الكلمة كابلا (كذا) التي معناها مسجد . فارى انكم مصيبون (كذا) لان كلمة كابلا كانت تطلق على بعض المعابد المسيحية ككعبة نجران . وبعد البحث وجدت ان الكلمة كابلا مشتقة من كاربالا اي العمل الصلوي (كذا) وكاربلا كانت اسم (كذا . يريد اسماً) لمعبد عظيم وهو مشهد النبي تموز المذكور في التوراة في سفر حزقيال ص ٨ : ١٤ . والمذكور في تواريخ الشرق عن النبي تموز هو انهُ وُلد في مدينة الاهواز وهجر الاهواز الى كربلاء وهناك قتل هو وبنوهُ وانصارهُ وبعد قتلهِ آمنت بهِ قبائل تلك النواحي وبنت على قبرهِ قبة عظيمة وكانوا يأتون من جميع النواحي لاجل زيارتهِ . وكانوا في هذه الزيارات ينشدون المراثي ويلبسون الثياب السوداء ويبكون عليهِ . وغالباً لا تكون هذه الزيارات الاَّ في شهر تموز . أما اتباعهُ فقليلون الآن البعض منهم في سوك شيخ (؟) والآخر في البصرة . واسمهم الآن الصابئون واكثر عملهم في الصياغة ولا يزالون للآن يجرون شعائرهم الدينية بالتطواف حول كربلاء ولبس الثياب السوداء وانشاد المراثي . ويظن بعض الشيعيين انهم يبكون على الحسين رضي الله عنه . وذلك من الاتفاقات الغريبة . اي ان يكون مشهد الامام الحسين هو ذات مشهد تموز اه وقد تبين لي ان الكاتب المذكور قد اخطأ المرمى فاقول :

١ً لا يمكن ان تكون لفظة كعبة مأخوذة من كابلاً (capella) لان هذا الحرف بهذا المعنى حديث الوضع بالافرنجية بالنسبة الى مثله في العربية .

٢ً ان بين اللفظتين كعبة وكابلاً بوناً عظيماً

٣ً ان كابلاً فرنساوية الوضع لا لاتينيتهُ . ومن تلك اللغة نقلت الى هذهِ . والحال لا يمكن ان يعقل امر اخذ العرب لفظة عن محدثي الفرنسيس .

٤ً ولو فرضنا ان اللاتينية سبقت الفرنساوية في هذا المعنى فالعرب لم يأخذوا عن اللاتين لفظة تتعلق بامور الديانة . الاَّ ما حدث منها في هذه العصور الاخيرة .

٥ً واما ان كلمة كابلاً اطلقت على بعض المعابد المسيحية ككعبة نجران . فالتاريخ يخالف هذا التأكيد الزائف عن الغرض . واما ان كابلاً مشتقة من كاربالا فهذا امر يخالف كل معقول ومنقول . لان كاربالا فارسية وكابلاً فرنساوية او لاتينية على رأي فرنج ونصارى الفرس لم يعبروا الافرنج لفظة واحدة دينية لتكون هذه اللفظة الثانية . اما كابلاً فمشتقة

من cappa وهي الحبرية او الغفارة ويراد بها ثوب يشتمل به الكاهن كالرداء عند القيام بشعائر الدين والظاهر ان اسم الكابلاً وهي المصلى مأخوذ عند الافرنج من غفارة او حبرية وضعت في مصلى وتلك الحبرية كانت لاحد القديسين بمنزلة الذخيرة فسمي المصلى بها . هذا الذي ذهب اليه لتره وهو ارجح من كلام مكاتب تلك المجلة

اما ان كابلاً لا يراد به المسجد ولا سيما كعبة نجران فلأن المصلى او الكابلاً لا يكون فيه الاَّ مذبح واحد واكثر ما يكون لأهل بيت او قصر خاص . ولا يمكن ان يقال فيه القدّاس الاَّ بإذن أُسقف الابرشية والكعبة معبد عام . وتفسير كاربالا بالعمل الصلوي غريب فلفظة « كار » فارسية ومعناها العمل او الشغل « وبالا » يعني الاعلى فيكون محصل المعنى : « العمل الاعلى » لا العمل الصلوي .

اما كون كاربالا مشهد النبي تموز المذكور في التوراة في سفر حزقيال ص ٨ : ١٤ فالمذكور في هذا الموطن ان « هناك كانت نساء جالسات يبكين على تموز » ولم يقل صاحب السفر الكريم انهُ نبي . والمشهور عن تموز انهُ من معبودات اهل فينيقية وكان يسمى ايضاً « أدونيس » ومن الاخبار الشائعة عنهُ انهُ قتل وهو شاب في قرية غينة من الاصقاع المذكورة فناحت عليه امه الزهرة او عشتاروت . وهذه هي خرافة لا حقيقة لها وانما كانوا يرمزون بها الى الشمس وتقلباتها من حالة النور الى الظلام في بعض فصول السنة . فكانوا اذا قدم الخريف يحتفلون باعياد يدعونها « جنازة ادونيس » . راجع المشرق ٢ : ٥٩٨ و٧٠٢ الخ . فقول المكاتب ان تموز وُلد في مدينة الاهواز فليس لهُ من الحقيقة ادنى نصيب واما انهُ قتل هو وبنوهُ وانصارهُ في كربلاء فحديث خرافة لا ذكر لذلك في تواريخ الشرق . والمكاتب لم يذكر اسم هذه التواريخ ولا اصحابها الذين نطقوا بها

واما قولهُ : (واتباعهُ قليلون اليوم ... واسمهم اليوم الصابئون) . فليس لهذا المعبود اتباع في بلاد العراق . والمتعبدون لهُ كانوا في فينيقية لا غير . وحكاية قتلهِ موضوعة فكيف يقال بعد هذا انهُ دفن هو واتباعهُ في كربلاء . والصابئون لا يعبدون تموز قط . وهم لا يوجدون في سوق الشيوخ (لا سوك شيخ) ولا في البصرة بل كانوا هناك في سابق الزمان وهم الآن في الناصرية والعمارة وما جاورهما من القرى الصغيرة . والصابئون لا يترددون الى كربلاء ابداً ولا يكون احداً في مواطنهم .

ويعتدي ان كربلاء محرفة من كلمتين اشوريتين وهما : (كَرَبَ) و (إبلا) ومعنى الكرب : الحرم وابلا : الإله . فيكون محصل المعنى : حرم الله او حرم الإله . لإلهٍ كان لهم هناك وهذا يدل على ان هذا الموضع كان في سابق الزمن حرماً لإلهٍ من آلهة

الاشوريين او الكلدانيين او ما صاحبهم من أمم تلك البلاد المنقرضة المحوقة . ووجود الأحرام (جمع حرم) عند تلك القرون امر مشهور لا يحتاج الى تنبيه الافكار اليه . وعليه فكان كربلاء في سابق العهد إما بمنزلة الحرم لاحد آلهتهم . واما انه كان فيه محراب او هيكل يعبد فيه . لان لفظة (حرم) عند الاشوريين (وكذا عند الكوشيين والحبش) تعني كلا الامرين يعني الحرم والمحراب .

والظاهر ان (الكرب) مبدلة من لفظة (الحرم) او هذه من تلك . فقال بعضهم فيه (الحرب) على لغة مازن اي ممن يبدل الميم باء كما قالوا : البوباء والموماة . والصرم والصرب ورجل بجباج ومجماج الخ . ومن بقايا الحرب بالعربية المحراب وهو بمعناها او يكاد . ولا جرم ان (الكرب) بمعنى (الحرم) كان معروفاً عند بادية بائدة العرب ثم اميتت اللفظة بعد ان وُلد من عقبها لفظ محراب فعاش الى يومنا هذا بعد ان قتل ذاك . ولما صارت الكلمة بلفظ الحرب تلقاها عرب آخرون من مجاوري الاشوريين او تلقى الاشوريون اللفظة عن العرب او لما اختلط الاشوريون بالعرب وكان يصعب على الاشوريين النطق بالحاء اذ هي غير موجودة في لسانهم ابدلوها بالكاف وفي بعض الاحيان بالخاء فانتقلت اللفظة من صورة (حَرَب) الى صورة (كَرَب) . بل ان بعض العرب كانت تبدل ايضاً الحاء كافاً . فقد قالوا الحشحِث والكشكِث . وأكثر النخل وأحثر والكابي والخابي .

ووقوع حرفين مبدلين في الكلمة الواحدة غير منكر عند العرب فقد قالوا : السبت والشبث وأعذك ولعلك وفلان منسرح من الكرم ومنسلخ الى آخر ما هناك وعندنا غير هذه الامثلة تربي على المئات .

واما من ذهب الى ان كربلاء منحوتة من (كرب) و (بلاء) فمن الاقوال السخيفة الواهنة التي لا تحتاج الى اظهار ما فيها من بعد التأويل واسم الموضع معروف قبل وجود العرب فيه . فتأمل .

واسخف من هذا كله قول من قال ان كربلاء سميت بهذا الاسم اخذاً من الكربلة مصدر كربل . وكربل الشيء خلطه لان ترابها مخلوط برمل . وقيل من كربل الحنطة غربلها لان ثراها يشبه ان يكون مغربلاً وقيل من كربل الرجل : مشى في الطين وكربل فلان : خاض في الماء وذلك ان الامطار اذا كثرت في كربلاء لا يوجد للرجل وسيلة سوى المشي في الطين او الخوض في الماء . وفي كل ذلك من التعسف في التأويل ما يكفينا مؤونة الخوض في تفنيد هذه الاقاويل . فاحفظه .

واما اصل لفظة الكعبة فعندي انه عربي محض لان الكعبة عندهم الغرفة وكل بيت

مربع وهذا يشير الى اصل وضع الكعبة في سابق العهد . هذا فضلاً عن ان مادة (ك ع ب) تدل على التجمع والامتلاء ومنه كعبت الجاريه نهد ثديها . وكعب فلانٌ الاناء : ملأه . وهذا يشير الى ان هذا البيت كان يجتمع اليه الناس من كل حدب وصوب والظاهر ان هذا الاصل الثلاثي من ارومة ثنائية الحرف يعين : (ك ب) ومنه : كب الشيء : ثقل (وبثقل عند تجمع جواهره او دقائقه) والغزل : جعله كبباً . والكباب : الكثير من الابل والغنم والتراب والطين اللازب والثرى وما تجعد من الرمل . والكبة الجماعة من الخيل والجرو وهق من الغزل والابل العظيمة والثقيل . . . الى آخر المادة فان معنى التجمع لا يزال معقوداً بناصيتها

وقل مثل هذا القول اذا ابدلت الكاف حرفاً يقاربها ويكثر التبادل بينها . يعني (ق ب) نقول : قب النبات : يبس (واليبس لا يخلو من تجمع في اجزائه) والقبُّ : الرئيس والملك والخليفة (اي الذي تجتمع عنده الناس لغرض من الاغراض) الى آخر ما هناك من مثل القبة . وهو بناء سقفه مستدير مقعر معقود الحجارة على هيئة الخيمة . . .

وكذلك اذا انحصت العين بين القاف والباء فانه ينهض ناهض بين يديك هو القعب والقعبة . وقعب الحافر كان مقبباً كالقعب . والقعب : القدح الضخم الجافي (الذي يجمع السوائل) والقعبة : شبه حقة للمرأة (تجمع فيها ادواتها) والقعبة : النقرة في الجبل (يجتمع فيها الماء) والقعيب : العدد الكثير (المجتمع بعضه الى بعض) . . . الخ

واذا استقريت مبدلات الحرفين وما بقحم بينهما لا تقع الا على مثل ما مرَّ بك . وهذا كله يدل على ان الكعبة من اصل عربي فمعناه التجمع لتجمع الناس فيها كما تجمع دقائق السوائل ونحوها في الاناء . ولقد اتخذ العرب والعجم في السابق وفي هذه الازمان معنى لفظ الاناء وما جاء من هذا القبيل لمعنى محل التجمع فهكذا قالوا في معنى الكنيس والكنيسة وهكذا قالوا في بعض الالفاظ التي تدل على السفن

ولا تظن ان مادة (ك ب . او : ق ب . او : ك ع ب . او : ق ع ب) خاصة بالعربية بل قد وردت ايضاً بهذا المعنى في اليونانية . فان اهل هذه اللغة يقولون (قنبي) كما تقول العرب : قنب وذلك في بعض معانيها . وقالت اليونان (كوبي) كما قالت العرب : (كوب) وقالت اليونان (قوبس) كما قالت العرب : كعب وكعبة ومكعب

ومن ثم فاذا اراد بعضهم ان تكون الكعبة من اصل اعجمي فلا تكون الا من احد هذه الالفاظ اليونانية الثلاثة المذكورة الا اننا نقول ونقول دائماً انها عربية العمومة والخؤولة

اما لفظة (مكة) فالذي يظهر لنا في اصلها انها اشورية من (مكا) بمعنى (البيت) من باب التغليب . كما ان الكعبة معناها : البيت المربع . ووجود الاشوريين في بلاد

العرب امرٌ لا شبهة فيه . والدلائل كثيرة بهذا الخصوص نكتفي بايراد واحد منها وهو قول عليّ حينما سأله اعرابي عن اصل قريش : (انا نزلنا من كوثى) وقد اتفق اغلب المفسرين واثبتهم قدماً في العلم ان المراد بكوثى هنا هي كوثى العراق وسكانها كانوا اشوريين فانتقال الاشوريين والكلدانيين الى مكة في سابق الزمن امرٌ لا ينكر ولا سيما بعد الاكتشافات العادية التي حسرت اللثام عن اسرار جمة كانت خفية عن عيون الانام . وربك اعلم بحوادث الايام والاقوام .

بغداد

احد فراء المقتبس

بني الارض

بني الارض هل من سامع فانبه . حديث بصير بالحقيقة عالم
جُبلنا على حب الحياة وانها . مخيفة احلام اطافت بحالم
سعى الناس والاقدار مخبوءة لهم . وناموا وما ليل الخطوب بنائم
جرت سفن الايام مشحونةً بنا . على بحر عيش بالردى متلاطم

***

تأملت في الاحياء طرًّا فلم اجد . بهم باسما الا على الف واجم
ورب سعيد واحد تم سعده . بالف شقيّ في المعيشة راغم
وما المرء الاّ دوحة في تنوفة . ملاّحة اغصانها بالسمائم
لها ورق قد جفّ إلاّ اقله . وعيدانها بين النيوب العواجم
ولا بدّ ان تجتث يوما جذورها . وتقلعها احدى الرياح الهواجم

***

ارى العمر معها ازداد يزداد نقصه . اذا نحن في نقص من العمر دائم
ولولا انهدام في بناء جسومنا . لما احتيج في تعميرها للطاعم
لحا الله بأساء الحياة كأننا . نُكبل من حاجاتها بالادامم
نروح كما نغدو نجاهد دونها . امورًا دعتنا لارتكاب الجرائم
فلو كنت في هذا الوجود مخيرًا . وفي عدمي لاخترته غير نادم

***

هل الموت الا سالك رحياتنا . اليه سبيل مستبين لعالم

وما زال هذا الدهر غضبان آخذاً ... على الناس من سيف المنون بقائم
تبصر تجد هذي البسيطة منزلاً ... كثير اليتامى عامراً بالمآتم
وليس الذي آسى له فقد هالك ... ولكن ضياع الفجعات الكرائم
ارامل تستذري الدموع وحولها ... يتامى كافراخ القطا والحمائم
وكائن ترى مخدومةً في جلالها ... سعت حيث ابكاها الردى سعي خادم
فليت المنايا حين قوضن بيتها ... بدأن بها من قبل هدم الدعائم

***

ارى الخير في الاحياء ومض سحابة ... بدا خلباً والشر ضربة لازم
اذا ما رأينا واحداً قام بانياً ... هناك رأينا خلفه الف هادم
وما جاء فيهم عادل يستميلهم ... الى الحق الا صدّه الف ظالم
جهلت بجهل الناس حكمة خالق ... على الخلق طرّا بالتعاسة حاكم
وغاية جهدي انني قد علمته ... حكيماً تعالى عن ركوب المظالم

***

دأبت لنفسي في الحياة كأنني ... من العيش ملقى في شدوق الضراغم
يخاصمني منها على غير طائل ... اناس فابدي الصفح غير مخاصم
واقنع بالقوت الزهيد لطيبه ... حذار وقوعي في خبيث المطاعم
واترك ما قد تشتهي النفس نيله ... لما تشتهيه قلة في دراهمي
وكم لي في بغداد من ذي عداوة ... وما انا في شيء عليه بجارم
اذا جئت بالقلب السليم يجيئني ... بقلب له من كثرة الحقد وارم

بغداد

معروف الرصافي

الامم بأفرادها (١)

آن للسوريين عامة ولا سيما المتهذبين منهم والمتعلمين ان يعلموا جميع الوسائل التي رقت الأمم في الاديبات والماديات ويعرفوا كيفية التذرع بها الى مجاراة الغير في الرقي وان ما بلغه الناس في هذا العصر من العلوم والمعارف وما ادركوه من الآداب والفضائل وما استنارت به اذهانهم وارتقت عقولهم واتسعت مداركهم وهذب اخلاقهم وما بلغوه من التفنن والمهارة والاتقان في الزراعة والصناعة والتجارة وما اعتمدوا عليه من القوانين في السياسة والرئاسة والقضاء والادارة وما احرزوه من اسباب التمدن والعمران وما اتوه من جليل الاعمال وعظيم الحسنات ليس جميعه نتيجة الاتفاق وابن الرفاهية والكسل وانما هو ابن العمل والاجتهاد والتعب والعرق ابن الدرس والبحث والاستقراء والاختبار ابن الافراد والنابغين فما نراه اليوم من ترقي المعاصرين وتمتعهم بوسائل التقدم والنجاح انما اتى على يد تلاميذ خمسة وسبعين قرناً حسب رواية التوراة واكثر من ذلك على رأي العلماء الطبيعيين والمؤرخين وما مر بهم من الادوار كاف لتعليمهم والاخذ بأيديهم الى هذا المقام

فقد توالى على الجنس البشري ازمان كانت بين الشدة والرخاء والبؤس والنعيم واحاطت بابنائه المضرات والمنافع احاطة الهالة بالقمر واكتنفتهم العبر من جميع الجهات فكانوا تارة يعتبرون بها فينتفعون واخرى يتلاهون عنها فيفوتهم النفع ويتضررون . وعلى هذا المنوال كانوا يتراوحون في التقدم والتأخر والصعود والهبوط وكانت تتفاوت مراكز الأمم في مراتب العمران تفاوتاً عظيماً لم يزل بيناً صريحاً حتى الآن غنياً عن الدليل والبرهان . وذلك لعدم اعتدادها بالاسباب والمسببات والمقدمات والنتائج بنسبة واحدة

موضوع خطابي — الامم بأفرادها — واريد بالافراد النوابغ والشاذين الممتازين والمتفردين باعمالهم وما تيهم مجددين مخترعين مبتكرين واعني المحررين من رق العادات المستقلين في الاعتقادات الذين لا يكتفون بتحصيل الرزق والاهتمام بالاكل والشرب واللباس وما اشبه من شؤونهم الخاصة فقط ولا يقلدون التافه المبتذل من الموضوعات والشؤون ولا تصدهم العقبات وتثنيهم المعاكسات الذين يخلدون ذكرهم بفعالهم ويعد الواحد منهم بقام الالوف والملايين

هؤلاء هم الافراد الذين اعنيهم بكلامي الآن وهم الذين يجمعون شتات الأمم ويؤلفونها

(١) من خطاب لجرجي افندي نقولا باز تلاه في حفلة جمعية الاعتدال في غرف القراءة في بيروت يوم الاربعاء ١٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٧ م

او يقسمونها ويبعثرونها . يشيدون اركان مجدها ويرفعون اعلام عزها او يزعزعون دعائمها ويهدمون اسوارها . يقيمونها او يتعدونها . يغنونها او يفقرونها . يقوونها او يضعفونها . يقدمونها او يؤخرونها . يعزونها او يذلونها . ينشطونها او يخملونها . وبعبارة واحدة يؤثرون فيها حسب اميالهم ومبادئهم وغاياتهم . وهم نافع قلما يضر وضار قلما ينفع ومتوسط بين النفع والضر اي مفيد ومؤذ معاً . فالاول من حبات الله للخلق والثاني من تلاميذ ابليس والثالث من الجبلتين بدليل ما نراه من التباين والتناقض والاختلاف في نتائج اعمالهم الخاصة والعامة مما يؤيد القول بان الامم بافرادها والافراد بتربيتهم وتعليمهم صفحات التاريخ شهود عدول تبرهن على تأثير الافراد في الأمم وتوضح مالهم فيها من المآثر والاعمال بنسبة استعدادهم وقواهم ونقر بانها شاكرة لهم ممتنة او ناقمة منهم حاقدة عليهم ولا ننكر انها تنادي على رؤوس الاشهاد انها مدينة لهم بما تتمتع به من الحسنات او تصيح وتتأوه وتئن وتتنهد مما حملوها عليه ورغبوها فيه وعودوها اياه من السيئات . وقلما ذكر التاريخ غير الافراد في كل جيل ومصر وامة ودولة . وقلما عدد غير مناقبهم ونوه بغير فعالهم لما لهم من التأثير في الأمم

فمهما اشتغل العاديون اي العامة وكدوا واجتهدوا معها قلدوا وتشبهوا ومهروا واتقنوا معها تعددوا وتكاثروا وتناظروا وتزاحموا فلا يؤثرون في ذويهم تأثير الافراد في الخير او في الشر ولا يرقون صنائعهم وفنونهم ترقية الافراد لها ولو مرّ عليهم قرون برمتها ومهما بلغ عديد الامة في اي مكان وزمان كانت معها ساعدتها طبيعة البلاد ودرت عليها اخلاف الرزق والثروة معها سعت في سبل العمران ورغبت في نيل الاديبات والماديات لا قيام لها الاّ بافراد يحثونها على النهوض والثبات ويرشدونها الى اقوم السبل ويتولون زعامتها ويقودونها في سبل الخير العام باخلاص وبراعة وتفنن

ويختلف تأثير الافراد باختلاف مراكزهم في هيئة الاجتماع ويتباين بتباينها فكلما علا مركز الفرد ازداد تأثيره واشتد نفعه او ضره . والويل لامة لا تعبأ بافرادها ولا تعمل على تنشيط النافعين منهم ومعاونتهم وترقيتهم جهدها فانها لا محالة خاسرة لان ترقي الفرد لا يتوقف على سعيه الشخصي واعتماده على نفسه فقط واقتحامه المصاعب واجتيازه العقبات بل ان ارتقاءه مناط بالاحوال المحيطة به ولها تأثير فيه لا ينكره غير المكابر . وللأمم يد طولى في ايجاد الافراد كما ان للافراد يداً اطول في ايجاد الامم

وحيثما عرفت فيم الافراد وجلت اقدارهم فنشطوا واخذ بايديهم ووثق بهم وركن اليهم تعددوا وافادوا لان الوسائل المعاونة لهم تسهل سبل نجاحهم فيبلغ معظمهم او كلهم

مبلغ النفع الحقيقي بدلاً من بلوغ الربع او الثلث او النصف فقط . اي فرد يستطيع اليوم اشغال العالم بما شغله به الاسكندر وتيمورلنك ونابليون وامثالهم قديماً . في مكنة كل مستعد ان يصير اعظم من روسو وباستور وبرتلو ولكنه يندر جداً او يستحيل ان يوجد نيوتن ثانٍ على الارض اليوم او فيما بعد وما ذلك إلاَّ لأن الامم امست قادرة على تكييف افرادها بما بثه فيها الافراد من المبادىء والآراء وبامكانها جعلهم فضلاء مجردين الى النفع ولو باكراه . والفرق عظيم بين الفرد المفيد المخلص الغيري وبين الحشر المرائي الاناني . ذاك يسعد امته وهذا يشقيها والامم الحية تتطلب السعادة من جميع ابوابها بكل ما فيها من القوى

سطوة الافراد عظيمة على العقول وليس هذا بمستغرب فان من طبائع الناس تقليد كبارهم ونوابغهم كلٌّ حسب مهنته وحرفته وميله فالغني يقتدي بالاغنى منه والعالم بالاكثر علماً والاديب بالاوفر ادباً والفاضل بالافضل وهلم جرا

كل ما تتمتع به الامم من الحسنات قد جنته بواسطة الافراد . العلم والادب المعرفة والفضيلة الثروة والرفاهية المجد والشهرة جميع ذلك من نتائج اتعابهم وتفردهم . ارتقى الطب بافراد لا يعدون جزءاً من مليون من الاطباء الذين نشأوا في الارض محققين ودجالين والناهضون يعدون على الاصابع وهم ابيوقراط وهرفي وجنر وتروسو وبريتونو وباستور وباهرنغ وبرسن وكوخ وورو . والكيمياء قد تنكر نفسها ولا تنكر فضل لافوازيه وبرتلو . والزراعة لا يمكنها نسيان النتائج الآتية من تجارب السرجون لوز ورفيقه الدكتور غلبرت . والفلسفة مقرة بخدم ارسطو وابن رشد وتوما واوغسطينوس وديكارت وباكون وكانت وسبنسر والاجتماعيات تردد بالشكر والامتنان ذكر فولتير وروسو وسيمون وتولستوي . والشعر يترنم بامير وس ودانت والمتنبي وشكسبير وهوكو وكل فن مقر بافضال افراده عليه وتاثيرهم فيه . ولا عجب اذا غير الفرد من حالات امته او حرفته ما لا يغيره الالوف والملايين من العاديين .

هدم باكون وديكارت اسوار الفلسفة القديمة واسسا الحديثة واوضح دروين مذهب النشوء والارتقاء . وعلم مكس ملر الاوربيين والمشارقة كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم . وبطرس الاكبر الروسي وكرمويل الانكليزي وفرنكلين الاميركي وبسمارك الالماني والميكادو الياباني الحالي وامثالهم كثيرون ممن قد نهضوا ببلادهم بتفردهم دع عنك المصلحين والمشرعين كما ان كثيرين من الافراد قد اساءوا الى امتهم اساءات قلما يغفرها لهم التاريخ كشارلوس الثاني عشر ملك الاسوجيين ونابليون الثالث امبراطور الفرنسيس واشباههما . كولمبوس ومجلان وفاسكودي غاما اغنوا العالم باكتشافهم أدباً ومادة . ذكتور وهوكو وكل بك غيرا طرائق الانشاء في الفرنسية والتركية . مبرام والاباري واحمد

خان افادوا الهنود اكثر مما استفادوه من انفسهم وهم عشرات الملايين . بوكر واشنطون يعمل على ترقية السود اعمالاً لم يأت بمثلها ملايين منهم . فانديك و بلس والبستانيون والياز جيان افادونا اكثر مما استفدنا من مجموعنا برمته

عرف الغربيون ان الامم بافرادها فنشطوا الافراد وعززوهم ورفعوا اقدارهم ولم يقفوا بعزيز وغال في هذا السبيل : واول ما وجهوا انظارهم اليه تكثير الوسائل العامة التي يسهل وصول الافراد اليها واستخدامها في ما يقدمهم و يرقيهم فاكثروا المدارس وجعلوا التعليم الزامياً وانشأوا المكاتب للمطالعة واسسوا المنتديات للمباحثة غير جاهلين ان وجود الافراد غير متوقف على كل هذه الامور وانما حجتهم تسهيل الوسائل لظهورهم ومعاونتهم على الاستفادة والافادة اذ لا يعلم غير الله من اي فئة يبزغ الافراد في كل حين من الفقراء ام من الاواسط ام من الاغنياء . ولكن الرأي المعول عليه ان الافراد كثيراً ما يرون نور الوجود في الاكواخ والبيوت المتوسطة لا في القصور والمنازل الفخيمة . وبهذا تتضح غاية انشاء المدارس المجانية والمكاتب والمنتديات العمومية . ولم نعدم نحن في بلادنا افاضل منا ومن محبينا ادركوا هذا الامر الجليل فعملوا على ايجاده وتعزيزه

كثير من الناس لا يعبأون بغرف القراءة ولا يرون فيها غير التسلية وصرف اوقات الفراغ على انها أنشئت لغرض اسمى واعم ولا يقتصر نفعها على استمالة الشبان عن القهاوي والحانات وترقية عقولهم بالمطالعة وتهذيب نفوسهم بها بل هي مورد عذب للافراد يستفيدون منها ما يضن به الدهر عليهم . واذا لم يكن لها غير هذا النفع لكفاها فضلاً وفخراً

الميكروب

تولده وعلة الاختمار

انقسم العلماء نظريًا بناء على اكتشافات « شوان » السابق بيانها في علة الاختمار الى ثلاثة اقسام . اولهم القائلون ان الاختمار عارض يطرأ على بعض الجوامد في احوال مخصوصة لا يتحولا ينوقف حصوله على الخلايا او الميكروب التي لا يكون لها فعل او مدخل في الاختمار اذا وجدت في شيء من تلك المواد بل تصادف احيانًا فيها لانها تتكون منها بنوع عارضي طاريء بلا علة ولا والد . وسمي اهل هذا المذهب (اصحاب التولد الذاتي او الطرآتي)

والقسم الثاني وهم القائلون ان الاختمار فعل حيوي قائم بالخلايا وملازم لحياتها واغتذائها وهي تنمو وتتكاثر وتتخلد طبيعيًا بالتناسل وهؤلاء هم (الحيويون).

والقسم الثالث هم الذين ينسبون الاختمار الى فعل كيماوي . وكان الرأي الاول مرجحًا ومقبولاً عند الجميع لما لم يكن قائمًا على اساس وقاعدة علمية وليس في تعليلاته النظرية ما يشفي غليل المتنقد المتوغل ويقنع النبيه المتبصر كأن يقوم الحين بعد الآخر من يخطيء القائلين به ويحاول اكتشاف سبب حقيقي وتعليل تركن اليه العقول ويقبله الحدس السليم . وكان كثيرون قد وقعوا على الحدس وقروا وجود سبب خفي عن الابصار يكون علة الاختمار والامراض ولكنهم كانوا قاصرين عن اثباته ببرهان تسند قضاياه على الادراك حسيًا ومنطقيًا .

ففي سنة ١٧٧٦ حاول (سبالنزاني) الايطالي اثبات وجود الخلايا وبيان تولدها وفعلها في الاختمار مستندًا على التجارب فاخذ بعض السوائل الاختمارية ووضعها في اكواب من الزجاج احكم سدها ثم غلاها في الماء قاصدًا اتلاف ما فيها من الخلايا او الميكروب ومنع دخول الهواء اليها بعد الغليان فنجحت تجربته تلك . لان بعض الاكواب دامت معقمة لم يفسد ما فيها ولم يتخمر . وذاع خبرها فبنيت عليها كيفية حفظ بعض المأكولات من الفساد بوضعها في علب تغطى ويحكم سدها ليتمنع دخول الهواء اليها .

ان نجاح هذا المسعى وان لم يكن غير كاف لاقناع الكافة فقد كفاه فضلاً ادخاله الشك على المذهب القديم وفتحه بابًا للدخول علميًا وعمليًا في الموضوع .

وبعد ذلك قام كثيرون وتفرغوا للبحث والتوغل في المسألة وخصوا انفسهم لها وبذلوا النفس والنفيس في استقصاء الحقيقة فتركوا المنافسات النظرية والحدسية واقتصروا على التجربة والعمل واذ كانت سوق العلوم وتنشر رائجة ناجحة لم يتركوا واسطة املوا منها بعض النجاح

لاي علم او فن نسبت ولم يستعينوا بها في البحث عن الحقيقة . وافضل الوسائط والآلات لم خدمةً هو كما سبق القول المجهر الذي كان وقتئذٍ قد أُتقنت صناعته واستكملت فتوصلوا به الى رؤية أدق الميكروب عيناً وعياناً .

ولما كان مجرد وجود الاجرام الحية في مادة مختمرة او متعفنة لا يكفي للتصديق بانها المسبب الوحيد لذلك اقتضى ان يتبين ايضاً بالتجربة بان ظواهر الاختمار لا يمكن حصولها في مادة ما جردت من تلك الاجرام وحجبت عنها . وعليه فانهم كانوا يصنعون المواد التي يقصدون التجربة عليها في زجاجات فيغلونها في الماء لكي تموت بالحرارة الاجرام الحية من السائل والزجاجة وذلك اما بسد الزجاجات اثناء الغليان او بتعرية الهواء الداخل اليها من الاجرام الحية .

قلت فيما سبق ان هذا الامتحان كان سبق اليه وجرب منذ سنين عديدة . فكان العالم مثلاً قد اختبر بانه يقي من الفساد جميع المواد التي كان يغليها ثم يغمرها في الزيت الذي يحجرها عن الهواء او انه كان ينقي ويصفي الهواء من اجرامه بالحوامض قبل ان يمس تلك المواد المغلية .

وفي سنة ١٨٣٧ اعاد شوان المومأ اليه تلك التجارب عينها وكان زيادة على ذلك اذا اهلك الاجرام الموجودة في الهواء بامرار ه في انبوب حام قبل وصوله الى المواد المعروفة التجربة لم تفسد .

ان تنقية الهواء من الاجرام الحية سواء كانت بوسائط كيماوية او بحرارة النار لم تغير تركيبه الطبيعي . على ان المخالفين للرأي الحيوي تشبثوا بها محتجين بان الهواء بتلك الوسائط يطرأ عليه تبدلات جوهرية فلا يعود صالحاً للحياة . فردّاً لهذا الاعتراض عاود شريدر وفوندش سنة ١٨٥٤ تلك التجارب ولكنهما جعلا ذلك في زجاجات ذوات عنق او انبوب طويل منحنٍ على زاوية قائمة . والغرض من ذلك هو تسريح البخار والهواء الخارج من الزجاجة عند الغليان وبعد تصفية الداخل اليها بقطعة قطن منتوف نقي توضع في فوهة الانبوب فصحت التجربة والخم المعترضون . ولكن حاول بوشه سنة ١٨٥٨ ايضاً اثبات حدوث الاختمار من دون هواء ومن بعد تعقيم المواد المجرب عليها . فاخذ زجاجة ملأها ماء فوضعها على النار تغلي ريثما تهلك الجراثيم منها ويطرد الهواء ثم اخذ الزجاجة وسدّ فمها سدّاً محكماً فكبه في اناء مملوء زئبقاً . فبعد ان برد الماء في الزجاجة ادخل اليها من تحت الزئبق كمية من الاكسجين وبضعة غرامات من حشيش يابس معقم بالبخار فما لبث الماء ان فسد والزجاجة في الزئبق لم يدخلها الهواء فاستنتج المعلم المومأ اليه بان هذه قد حصلت من ذاتها ولم تأت لا من المواد التي كانت قد عقمت ولا من الهواء الذي لم يدخل الزجاجة . فردّ عليه باستور بان جراثيم الخلايا التي ظهرت بماء الزجاجة انما وصلت اليه بواسطة الزئبق الذي لم يعقم قبل التجربة وكان في انائه معرضاً للهواء المحتوي عليه الجراثيم المنثورة في الهباء

ثم اخذ باستور بالاتفاق مع شفرويل في اعادة جميع التجارب التي تثبت رأي الحيويين . وذلك باسلوب جلي بسيط تراه العيون وتدركه العقول فصنعا زجاجة ذات عنق كالانبوب طولها نحو متر واحد او اكثر منحنية على زاوية قائمة عند اصلها وذات تعرجات كثيرة اشبه بالية الزاحفة تنتهي فوهتها منحنية نحو الارض . والغرض من ذلك ان الهواء الداخل الى الزجاجة تبروره في الانبوب يترك في تعرجاته جميع ما يحمله من اقذاء حتى يتنقى اذا وصل الى داخل الزجاجة واختلط بالسائل . فيكون بهذه الواسطة غنياً عن جميع الوسائل التي اتخذها المجربون من قبل لتنقية الهواء فكانت هذه حقيقة التجربة الاخيرة لانها اكدت جميع ما قبلها وقطعت قول كل معترض . وناهيك بان باستور لم يكن يكتفي بتجاربه العديدة على ملاحظة زجاجة واحدة بل انهُ كان كل مرَّة يعدُّ عدة من الزجاجات كلها على صفات وشروط واحدة لا اختلاف بينها البتة . فكان يعقم الزجاجات وما فيها ويتركها في مكان خاص تصلح درجة حرارته لحدوث الاختمار فلم يظهر ذلك في شيء منها . فكان يكسر انبوب زجاجة من اصله ليثبت بان الهواء اذا دخل زجاجة من تلك الزجاجات من دون ان يتنقى بالانبوب يفسد السائل فلم يلبث ان يختمر ما فيها ولاثبات تنقية الهواء بمروره بالانبوب تاركاً هباءه والجراثيم الحية في تعرجاته كان يحني زجاجة نحو انبوبها ليمرّ السائل فيه حتى يصل الى حدٍ ما منه فيعود يرجعه اليها . فكان السائل يختلط ببعض الجراثيم المتساقطة في الانبوب فيختمر لا محالة . واذا ادخل جزءاً يسيراً من مادة خميرية في زجاجة كان يختمر ما فيها . وقصارى القول فان الزجاجات المعقمة كانت تبقى كذلك ابداً ما لم يدخل اليها عمداً للاختبار بعض جراثيم الاختمار . فاشتهرت تلك التجارب وعرفت قواعدها وشروطها في العالمين حتى صارت دستور العمل لحفظ المأكولات والمشروبات ووقايتها من الفساد وسميت باسم واضعها ومكتشفها باستور . وعند ما كثر المجربون واختلفت مآربهم ودرجة معلوماتهم في فن الميكروب تهاون بعضهم في الدقة واستكمال الشروط التي لا بدَّ منها للنجاح حبطت بعض تجاربهم فاعتمدوا على القواعد الموضوعة وغالطوها وادعوا بانهم اتخذوا جميع الوسائط المقررة فلم يتمكنوا من منع الفساد والاختمار ولما كان ذلك نتيجة خطأ هو قلة دقتهم وقصر باعهم فاعتراضاتهم لم تزعزع القواعد التي تقرر حكمها ابداً .

جراثيم الميكروب وصفاته

لم يقتصر باستور من تحصين اكتشافاته واستكمال الفوائد والشروط للاحتراز فيها من الفشل . من ذلك انه عند ما اطلع بان بعض الميكروب لم تهلكه حرارة الماء التي تغلي والقدر مكذوفة بل كان يبقى بعضه حيّ من بعد الغليان اما على الزجاجات او فيها فيفسده

اخذ يسخنها والزجاجات الى درجة ١١٠° — ١٢٥° من الحرارة في القدر المعروفة باسم مخترعها بابن .

ويعرف « شريادر » ايضاً ذلك فصار اما ان يسخن المواد الآلية بالقدر المذكورة او يتركها تغلي على العادة القديمة بضع ساعات . ولا يخفى ان من الميكروب الذي لم تتنه حرارة الماء الغالي هي جراثيمه او صئبانه . واكتشف باستور سنة ١٨٦٥ جراثيم او بيضات ونسيجها صئبانًا لكل من انواع الميكروب تخلفها هي فيتكوّن منها النسل .

واشهر من توغل في البحث عنها المعلم كوخ الالماني ونشر فيه كتاباً سنة ١٨٧٦ واظهر بان جميع الميكروب وهو في لبان نشوئه ونموه يهلكه الماء الغالي بل اقل حرارة من درجتها انما جراثيمها تحتمل بطرًا شديد الأُجاج واظهر ايضاً بان الحرارة الرطبة انجع منها يابسة لاهلاك تلك الجراثيم فجعل بعض انواعها في حمام جاف درجة حرارته ١٢٠° مدة اربع ساعات فلم تهلك ولكن تم ذلك بمدة ساعتين في حمام درجة حرارته ١٤٠° واما الحرارة الرطبة اعني في حمام فيه بخار الماء مئة درجة من الحرارة تكفي غالباً لاهلاكها تماماً بمدة قصيرة . ولاجل الحصول على الامنية التامة في ذلك علمنا كوخ بان نكرر عملية التسخين في حمام البخار المذكورة بضع دفعات بين بعضها عدة ساعات ريثما يبرد السائل . فالجراثيم التي لم تهلكها الحرارة تنتعش وتنمو حينئذٍ فقبل ان يدرك وقت تخليفها صئبانًا وضع السائل من جديد في حمام البخار فيهلك الميكروب الناشيء فيه . فاذا اعيد ذلك مرة اخرى او اكثر تحوّل الصئبان كلها الى خلايا ناضجة فتهلك ويحصل كذلك التعقيم التام .

دمشق

سليمان غزالة

اليونان

غارات على ارضهم ورحلات اليها

تاريخ اليونانية — لم يسكن جميع شعوب يونان منذ الزمن الاطول البلاد التي كانوا فيها في القرن السابع اي في العصر الذي اخذ اهل العلم يعرفون عنهم شيئًا يوثق به. وقد حفظ كثير من هذه الشعوب ذكرى نزولهم في تلك البلاد وامتازوا عن الشعوب العريقة في القدم النازلة في تلك البلاد. جاءت امم كثيرة فاحتلت ارض يونان بقوائم سيوفها وتشتت شمل غيرهم امام المغيرين عليهم. ويقول اليونان ان بدء هذه الغارات الشعواء والرحلات كانت من القدم بحيث لم تصلنا اخبارها مسطورة ونقلت وشاع ذكرها تقليدًا ويقولون انها كانت في القرن الثاني عشر (اي بعد اخذ طروادة بثمانين سنة) ولا عبرة بهذا التاريخ اذ لم يكن لليونان وسائط يحسبون بها في ذاك العهد المتطاول على ان هذا التاريخ أُخذ قضية مسلمة بدون جدال ولا نزاع فيه.

دعي اقدم سكان يونان بالبيلاسج (ولعل معناه القدماء) ولم يُعرف عنهم شيء ولا فيما اذا كانوا من جنس يوناني او من جنس آخر. ومن هؤلاء السكان لا يعرف غير اليونان ولا يعلم ايضًا كيف ابدل اسم بيلاسج بالهيلانيين اذ لم يرد في اشعار هوميروس ايضًا ذكر لهذا الاسم. ومن المقرر ان بضعة بلاد حفظت أثرًا من آثار فاتحيها وغزاتها. فقد جاء قوم برابرة من البلاد المشهورة ببلاد الالبانيين «الارناؤط اليوم» وهاجموا سهل بينيه المسمى فدعي بعد باسم تساليا وتألفت من هؤلاء المهاجمين عصابة من الفرسان الاشراف وامسى سكان البلاد الاصليون عملة يزرعون ويحرثون ليس الا. وقد رحل الى وادي سيفيز الذي سمي باسم (بيوسيا) كل من لم تخضع نفسه لهذا الحكم

وبعد ردح من الدهر خرج الدوريون من جبال البند واجتازوا برزخ كورنت واغاروا على بلاد المورة واستوطنوا من اقاليمها ما امرعت تربته وغنيت رباعه وبقاعه مثل لاكونيا ومسينيا وارغوليديا وسيكيونيا وكورنت وميكار. ويروى ان قدماء ملوكهم دعوهم الهيراكليديين (اي نسل المعبود هيراكليس) ليغلبوا رعاياهم الثائرين ويعيدوهم الى عروشهم وكان ملوك اسبارطة يرون انهم من نسل قدماء السكان لا من الدوريين وقد استحال الشعب الذي احتل البلاد التي اغار عليها الدوريون الى زراع واهل فلاحة

واستولت عصابة من الايتوليين الذي صحبوا الدوريين في تلك الحملة على مقاطعة ايليديا في الغرب. وانهال الاشيائيون من ابت نفوسهم الخضوع على شاطيء شبه جزيرة المورة

الشمالي وطردوا منها الايونيين واسسوا الاثني عشرة مدينة الآسيانية فلجأ الايونيون المطرودون الى مقاطعة اتيكيا وامتزجوا بسكانها الاقدمين ومن ذاك العهد عرف الاثينيون اي سكان اتيكيا شبهاً ايونياً . ثم انفصلت عصابات من عدة شعوب وراحوا يؤسسون مستعمرات في السيف الآخر من البحر . والايوليون اقدم هذه العصابات النازلة في آسيا ثم سكنوا بعد ذاك الشاطيء بعينه . واحتل الدوريون جزيرة اقريطش (كريت) وبعد زمن استعمر اليونان صقلية وايطاليا الجنوبية .

الدوريون — يراد بالدوريين نسل سكان الجبال النازلين من الشمال ممن طردوا او اخضعوا سكان السهول وشاطيء بلاد اليونان الجنوبية المعروف ببلاد المورة و يذكر هؤلاء المغيرون ان ملوكاً من اسبارطة من نسل البطل هيراكليس قد طردهم رعاياهم فجاؤا يبحثون عنهم في جبالهم تتبع الدوريون اخلاف هذا البطل حباً به ونصبوهم على عروشهم ثم اغاروا على السكان واستصفوا ارضهم وديارهم . وكان هذا العنصر جيلاً من الناس اشتهر بجماله وقوته وصحة اجسامه وتعود البرد وشظف العيش وحياة الفقر والفاقة فترى رجالهم ونساءهم يلبسون ثياباً قصيرة لا تصل الى ركبهم . والدوريون امة حربية دعاها الاضطرار الى ان تكون ابداً على قدم الدفاع تحمل عدتها وعتادها وهم اقسى اهل يونان لبعد اقليمهم عن البحر ولذلك احتفظوا باخلاق الاجيال المتوحشة وهم اعرق في اليونانية من غيرهم من سكان تلك الامصار لانهم كانوا على وحدتهم لا يستطيعون الامتزاج بالغرباء ولا تقليدهم في منازع اخلاقهم .

الايونيون — يدعى شعوب ايتكيا والجزائر وشاطيء آسيا بالامة الايونية . ولا يعلم من اين جاءتهم هذه التسمية وهم على عكس الدوريين جنس من البحارة او التجار . ومن اكثر شعوب اليونانية تهذيباً لانهم استفادوا من الاحتكاك بامم مشارفة اعرق منهم في الحضارة واقتبسوا من النظر اليهم وهم ضعاف في صبغتهم اليونانية لامتزاجهم بالآسياويين ولانهم نحوا نحو هؤلاء في عاداتهم الا قليلاً يميلون الى السلم و يولعون بالصناعات و يعيشون عيش الترف يمضغون الكلام و يرققونه و يلبسون ثياباً ضافية الاذيال على مثال المشارقة

الحيلانيون — هذان العنصران او الجنسان المتباينان المعروفان بالدوريين والايونيين هما اشهر عناصر اليونان واقدرها . فاقليم اسبارطة للدوريين واقليم اثينية للايونيين وليس السواد الاعظم من اليونان دوريين ولا ايونيين و يعرفون بالايوليون وهو اسم مجهول يطلق على شعوب مختلفة في تلك الاصقاع من ايوليين واكرنانيين وفوسيديين و بيوسيين من اهل البلاد اليونانية الوسطى والاشائيين من اهل المورة . وكل من تقدم ذكرهم يسمون

باسم الهيلانيين الذين عرفوا به منذ ذاك العهد وهم لا يعرفون وجه تسميتهم هذه كما يقول نحن ذلك على انهم يقولون ان دوروس وعولس كانا اولاد هيلانة وابين حفيدها

مستعمرات اليونان (١)

الاستعمار اليوناني — لم يقتصر الهيلانيون على سكنى بلاد اليونان فقط بل قام منهم طواريء من اهل المدن انشؤا بلداناً في جميع الانحاء المجاورة وكانت عدة من هذه الممالك الصغيرة اليونانية في جميع جزائر الارخبيل وعلى جميع شاطيء آسيا الصغرى واقريطش وقبرص وفي كل ماحاط بالبحر الاسود الى بلاد القافقاس والقريم على طول البلاد العثمانية في اوربا (المعروفة اذ ذاك بتراسيا) وعلى شاطيء افريقية وفي صقلية وايطاليا الجنوبية الى شواطيء فرنسا واسبانيا

اخلاق هذه المستعمرات — يبدأ تاريخ المستعمرات اليونانية من قرون كثيرة اي من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس وهذه المستعمرات اشتقت من كل المدن ونتجت عن كل جنس دوريًا كان او ايونيًا او ابوليًا . ولطالما قامت المستعمرات في اماكن قفرة تارة وفي بلاد مأهولة اخرى أسست حيناً بالفتح وآونة بالاتحاد مع السكان وانشأها بحارة او تجار او منفيون او متشردون . وتمتاز هذه المستعمرات على اختلاف زمانها ومكانها وجنسها واصلها بخلق عام وانها نشأت دفعة واحدة بمقتضى قواعد ثابتة . وما كان الطواريء او المستعمرون من اليونان يحلون في بلد واحداً بعد واحد عصابات صغيرة ولم ينزلوا بقعة عرضاً فيقيمون لهم مساكن تصبح بالتدريج مدينة على نحو ما يفعل الطواريء من الاوربيين في اميركا اليوم بل كان الطواريء منهم يسافرون قصداً وقضيضهم دفعة واحدة ورئيسهم واحد فيؤسس البلدة الجديدة في يوم واحد . وكان تأسيس احدى المدائن يعدّ احتفالاً دينياً فيخط المؤسس لها سوراً مقدساً ويجعل بيتاً مباركاً يوقد فيه ناراً مقدسة

تقاليد المستعمرات — ينضح مما نقل من القصص القديمة في تأسيس بعض هذه المستعمرات وجه الاختلاف بينها وبين المستعمرات الحديثة . واليك كيفية استعمار مدينة مرسيليا والبداءة به فقد جاء الى بلاد الغال (فرنسا اليوم) اوكسينس احد اهالي مدينة فوسي في آسيا الصغرى على سفينة تجارية فدعاه احد زعماء الغاليين الى عرس ابنته ومن عادة هذا الشعب ان تدخل العروس بعد الطعام حاملة كأساً تقدمها لرجل تختاره من الجماعة فوقفت امام اليوناني ومدت الكأس نحوه . فظهر للقوم ان هذا العمل كان بالهام من السماء

(١) جاء هذا الفصل متأخراً عن هذا بضعة فصول في الطبعة الاخيرة

اذ لم يكن متوقعاً . ثما كان من الزعيم الغالي الاّ ان زوج اوكسينس من ابنته وسمح له بان يؤسس ورفاقه مدينة على خليج مرسيليا ثم لما رأى اهل فوسى ان الجيش الفارسي يحاصر مدينتهم قاموا يعدون لهم سفناً تقلّ عيالهم واثقالهم واصنامهم وحليّ معابدهم وغادروا بلدهم ماخرين في سفنهم واقسموا عند منصرفهم ان لا يعودوا اليها الا اذا عامت على وجه الماء الحديدة المحماة التي القوها في البحر . وقد نكث كثير منهم هذا العهد وعادوا الى مسقط رؤوسهم اما الباقون فظلوا يشقون العباب بعد العباب حتى وصلوا الى مرسيليا بعد ان تجشموا اهوالاً كثيرة . واسس الايونيون مدينة ميلت تاركين نساءهم وراءهم واستولوا على بلد يقطنها ناس من آسيا فذبحوا الرجال وتزوّجوا بنسائهم وبناتهم قسراً . ويقال ان هؤلاء النساء اقسمن ان لا يتناولن الطعام مع ازواجهن وان لا يناديهم يا ازواجنا . عادة بقيت قروناً يعمل بها عند نساء ميلت . اما مستعمرة برقة في افريقية فقد أسست بامر صريح من المعبود ابولون ووحي منه . فلم يكن سكان مدينة تيرا الذين أمروا بذلك يحاذرون من نزول بلد مجهول ولم يعملوا بهذا الامر الا بعد سبع سنين وكانت جزيرتهم عرضة للجفاف فاعتقدوا ان ابولون ساقهم الى تلك الجزيرة عقاباً منه لهم . وحاول الطواريء الذين انفذوهم ان يرجعوا فداهمهم مواطنوهم واكرهوهم على السفر . وبعد ان قضوا عامين في احدى الجزر وقد خانتهم فيها اسباب النجح انتهى بهم الحال ان يستوطنوا ابد الدهر مدينة برقة فكان منها مدينة عامرة راقية .

خطورة المستعمرات — من شأن هذه الطواريء ان تؤسس حكومة جديدة في كل مكان تنزله ولا تخضع لأم القرى التي انفصلت عنها بتة . وهكذا بلغت الحال بان كان البحر المتوسط محاطاً بمدن يونانية كل منها مستقلة تمام الاستقلال . فاصبح كثير من هذه المدن آية في غناه وقوته لم تضاهه بهما المدن التي خرجت منها وكان لها اصقاع اوسع واخصب وبكان او فر واكثر . ويقال انه كان في مدينة سيباريس في ايطاليا ثلثمائة الف رجل يحمل السلاح وان كروتون جيشت جيشاً مؤلفاً من مئة وعشرين الف مقاتل وفاقت سيراكوزه في صقلية وميلت في آسيا بقوتهما مملكتي اسبارطة واثينية وكان يدعى جنوب ايطاليا يونان الكبرى . وما كانت المملكة الاصلية غير بلاد صغرى بالنسبة لتلك المملكة المأهولة كلها بالطواريء من اليونان . وحدث ان كان الهيلانيون اوفر عدداً في البلاد المجاورة منهم في بلاد اليونان نفسها . وترى بين رجال تلك المستعمرات طائفة صالحة من المشاهير مثل هوميروس والسيوس وسافوس وطاليس وفيثاغورس وهيراقليطس ودموقريطس وانفيدكس وارسطوطاليس وارخميدس وتيوكريتس وغيرهم

المدن — ظل اليونان منقسمين الى طوائف صغيرة في كل البلاد التي نزلوها كما كانوا على عهد هوميروس . وغير خاف ان ارض يونان وايطاليا الجنوبية متقطعة بالبحر والجبال ولذلك انقسمت بالطبع الى عدد كثير من المقاطعات الصغيرة كل منها منفردة عن جارتها برأس من البحر او بجدار من الصخر بحيث يسهل الدفاع عنها وتصعب المواصلات فكانت تتألف من كل مقاطعة حكومة على حدتها تدعى مدينة وقد بلغت اكثر من مئة مدينة . واذا احصيت المستعمرات بلغت زهاء الالف (١) وليست مملكة اليونانية الا صورة مصغرة بالنسبة الينا فان ايتكيا كلها لا تساوي نصف اصغر مقاطعات فرنسا لهذا العهد اما اراضي كورنت او ميكار فقد صارت ريفاً ومزارع . ومن العادة ان يكون ما يعبرون عنه بمملكة عبارة عن مدينة وساحل ومرفأ او بضع قرى مبعثرة في الفلاة حول قلعة فترى من المملكة الوحدة قلعة المملكة الثانية وجبالها او مرفأ المملكة المجاورة وكثير من هذه الممالك لا يسكنه اكثر من بضعة آلوف من الناس واعظمها لا يكاد يكون فيه مائتان او ثلثمائة الف نسمة . وبعد فلم يؤلف الهيلانيون او اليونانيون أمة برأسها ولا انفكوا من التقاتل والتقاطع على انهم تكلموا لغة واحدة على حد سواء وعبدوا آلهة واحدة وعاشوا عيشة واحدة منذ شطوط اسبانيا الى طرف البحر الاسود . فكانوا بهذه العلامات يتعارفون كما يتعارف ابناء نبعة واحدة ويتمازون عن سائر الامم التي يدعونها البرابرة فينظرون اليها نظر الاستخفاف والامتهان .

الديانة اليونانية

تعدد الارباب — اعتقد اليونان اعتقاد سائر قدماء الآريين بارباب كثيرة ولم يكن لهم شعور باللانهاية ولا بالازلية ولم يؤمنوا برب واحد تكون السماء سرادقه والارض سلمه ومرتقاه . واعتقد اليونان ان كل قوة في الطبيعة من هوائها وشمسها وبحرها هي قوة الهية ونسبوا كلا من هذه القوى الى رب خاص اذ لم يدركوا ان علة واحدة تنتج كل هذه الاكوان ولذا عبدوا عدداً عديداً من هذه الآلهة فكانوا وثنيين على هذا النحو .

نسبة الشهوات البشرية ودعوى تجسد الرب — كل رب هو قوة من الطبيعة وله اسم خاص به ولشدة تصور اليونانيين وسعة خيالهم مثلت لهم اذهانهم تحت هذا الاسم كائناً حياً في ابهى المظاهر من الصور البشرية وكانوا يتمثلون المعبود او المعبودة على صورة رجل جميل الطلعة وامرأة وسيمة المحيا وعند ما كان عولس او تيليماك يصادفان رجلاً عظيماً وسيماً يبدآن بسؤاله عما اذا كان ربا من الارباب . وقد صور على ترس البطل آشيل صورة

(١) في الطبعة الاخيرة حذف المؤلف هذه الفقرة الطويلة كلها الى آخر الفصل

جيش . قال هوميروس في وصفه له : ان اربس واتينيه كانا يقودان الجيش وكلاهما متشح بالذهب وكانا من الجمال والاعتدال على صورة تليق بالارباب اذ البشر اقزام تصار القامات وكان الارباب اليونانيون بشرًا يلبسون ثيابًا ولهم فصور واجساد كاجسادنا وهم ان لم يموتوا يجرحون . وذكر الشاعر هوميروس كيف ان احد المحاربين جرح الرب اريس فراح يصرخ من الالم . وهذا الضرب من اختيار الارباب على مثال البشر هو ما يدعى « انتروبومورفيسم » اي تجسيد الارباب .

علم الميثولوجيا — للارباب اقرباء واولاد ورهط واسرات لانهم ناس كالآدميين فلهم ربة واخوتهم ارباب واولادهم ارباب غيرهم او ناس هم نصف ارباب . وتدعى انساب هذه الارباب تيوغونيا . وللارباب تاريخ وحوادث ولهم قصص في مواليدهم واخبار شبيبتهم واعمالهم . فالرب ابولون مثلا ولد في جزيرة ديلوس وكانت لجأت اليها امه لاتون قبل غيلانًا كان قد خرب تلك البلاد في سفح جبل البارناس . وهكذا كان لكل مقاطعة يونانية اخبار تعزوها لاربابها سموها الخرافات ومن مجموعها نتألف الميثولوجيا اي تاريخ الارباب .

الارباب المحليون — بقي الارباب اليونانيون وهم على صفتهم البشرية على ما كانت عليه اولاً كوائن طبيعية فكان القوم يتخيلونها كما يتخيلون البشر وقوى الطبيعة فقد كانت التايادفتاة جميلة وتبعًا منيجيًا في آن واحد . وتخيل هوميروس الشاعر ان نهر جزيرة الزانت هو رب وقال فيه (لقد تدفق نهر الزانت على البطل آشيل وهو يزيد غيظًا ويرغي حنقًا ويخطاخًا بالزبد والجثث) وظلت الامة تقول ان الرب زيوس ينزل المطر ويرسل الرعد . وكان اليوناني يعتقد ان الرب عبارة عن مطر وسيل وسماء او شمس لا السماء والشمس والارض على الجملة . وكان ربه مسامتًا للسماء التي تظله والارض التي تقله والنهر الذي يعله . فمن ثم كان لكل مدينة ارباب ومعبودات كثيرة فمن رب الشمس الى ارباب الارض الى رب البحر وكانت تلك الارباب منفصلة عن شمس البلد المجاورة وارضها وبحرها بمعنى انه كان لاهل كل مقاطعة ربها ومعبوداتها الخاصة بها . فليس رب اسبارطة زيوس ربًا لآثينة زيوس بعينه وربما كان يذكر في قسم واحد ربان تحت اسم اثينيه او ربان تحت اسم ابولون . ذكر احد من طاف بلاد اليونان من السياح انه شاهد الوفًا من الارباب كانت تدعى ارباب المدينة ولم يكن هناك سيل ماء ولا غابة غبياء ولا اكمة شماء الا وهي موطئة (١) ولها صفة لا يشاركها فيها غيرها وربما كان هذا المعبود صغيرًا لا يعبده الا ناس من اهل الجوار وما مزاره غير مغارة في الصخر .

(١) يقول الشاعر ازيودس اليوناني انه كان في بلاده ثلاثون الف رب

الارباب الكبيرة — وهم اليونان ان فوق طوائف الارباب الكثيرة الصغيرة المبثة في كل مقاطعة بضعة ارباب كبيرة كالماء والشمس والارض والبحر المدعوة بهذا الاسم لها في كل مكان معبد خاص او مزار يتقرب فيه اليها وكانت تمثل كل من هذه الارباب اهم القوى الطبيعية وما اكثر عدد هذه الارباب التي اشترك اهل يونان كافة في التقرب اليها فانك لو احصيتها لاتكاد تصل في عدها الى العشرين . ومن سوء عادتنا معاشر الافرنج ان ندعو هذه الارباب باسماء ارباب لاتينية واليك حقيقة اسمائهم :

زيوس (المشتري) = هيرا (جونون) = اتينيه (منرفا) = ابولون = ارتيس = (ديان) = هرميس (عطارد) = هيفز توس (فولكين) = هيستيا (فيستا) اريس (المريخ) = افروديت (الزهرة) = بوزيدون (نبتون) انفيتيريت = بروته = كرونوس (زحل) = ريبيا (سيبيل) = ديميتير (سيريس) = برسيفونه (بروزربين) = هاديس (بلوتون) = ديونيزوس (باخوس) . وهذه الزمرة من الارباب هي التي كانت تعبد في كل المعابد على الجملة ويتوسل اليها في الصلوات .

خصائص الارباب — لكل من هذه الارباب هيئته وهندامه وادواته المدعوة خصائص هكذا تصورها المؤمنون من ابناء يونان وهكذا مثلها النقاشون منهم . ولكل خلقه المعروف به بين عابديه ولكل منها عمله الخاص به في العالم ويقوم بوظائف معينة وذلك بمعونة ارباب ثانوية تطيعه في العادة ويتصرف فيها بامره . فالرب اتينه مثلاً هو على صورة عذراء ذات عينين براقتين مثلث قائمة وهي تحمل رمحاً وعلى رأسها خوذة وعلى صدرها سلاح لامع وهي عندهم ربة الهواء النقي والحكمة والاختراع وعلى جانب من الهيبة والشراسة .

ومثل هيفيزتوس رب النار حاملاً بيده مطرقة على صورة حداد اعرج قبيح الهيئة وزعموا انه ينزل الصاعقة . وان الربة ارتيس كانت عذراء متوحشة تحمل قوساً وكنانة وهي تطوف الغابات تتصيد مع زمرة من الجنيات وهي ربة الغابات والصيد والبرت . اما هرميس الذي قلناه لابساً نعالاً مجنحة فهو رب المطر المخصبة وله اعمال اخرى وهو رب الاسواق والاماكن ورب التجارة ورب السرقة ورب الفصاحة يسري بارواح الموتى ويمشي في السفارات بين الارباب ويقوم على تربية الحيوانات . وللرب اليوناني ابداً عدة وظائف في الغالب هي في نظرنا متخالفة غير ان اليونان تخيلوا ان بينها تشابهاً ويرتأون لها صلة وعائداً

الاولمب وزيوس — كل من هذه الارباب اشبه بملك في مقره ومع هذا فقد لاحظ اليونان ان جميع قوى الطبيعة لاتسير بالتصادف وانها تعمل يداً واحدة فكانوا يطلقون اللفظ الواحد للتعبير عن النظام والعالم ففرضوا ان الارباب اتحدت على تسيير نظام العالم

وانه كان لهم شرائع وحكومة كما للبشر . وكنت ترى في شمالي اليونان جبلاً ذا قمم مكسوة بالثلج لم يصعد اليه بشر واسمه الاولمب وعلى هذه القمة المستورة عن اعين الناس بما يتراكم عليها من الضباب توهم اليونان ان الارباب يعقدون جلساتهم فيجتمعون مستنيرين بنور سماوي يتفاوضون في شؤون العالم وعظيمهم زيوس (المشتري) يرأس تلك الجلسات لانه رب السماء والنور والرب الذي يؤلف السحاب ويرسل الصواعق وصوروه على مثال شيخ مهاب ذي لحية بيضاء جالس على عرش من ذهب وهو الذي خص بالزعامة دون سائر الارباب ولذلك تراها تخضع له فاذا بدرت من احدها بادرة المقاومة في امر يتهددها زيوس واليك ما ذكره هوميروس على لسانه « اعقدوا في السماء سلسلة من ذهب وتعلقوا بها انتم معاشر الارباب ذكوراً كنتم او اناثاً ولو بذلتم الجهد كلكم لا تجرون زيوس الى الارض وهو الملك الآمر وعلى العكس اذا اردت ان اجذب السلسلة اليّ فانا جاذب اليّ الارض والبحر ثم اعلقه بقمة الاولمب ويبقى العالم كله معلقاً مصلوباً ما دمت اعلى منزلة من الارباب والبشر »

آداب الميثولوجيا اليونانية — ومع اليونان ان معظم اربابهم من القسوة والسفك والخداع والسفاهة على جانب فاخترعوا لهم اخباراً سفيهة واعمالاً نابية عن طور اللياقة . فكان هرميس بزعمهم لصاً واشتهرت افروديت بفجورها وخفرها واريس بقسوته وكانوا كلهم من العجب بحيث لا ينفكون عن اضطهاد من تساهل في تقديم اضحياتهم . ولما أعجبت نيوبي ملكة ثيبة بكثرة أسرتها لم يصعب عليها ان رأت الرب ابولون يصمي اولادها بالسهام ويزقهم كل ممزق . وكان من حال تلك الارباب في الحسد بحيث لا تتمالك من رؤية انسان بلغ غايات السعادة . فاليونان رأوا السعادة من اعظم الاخطار لانها تجلب غضب الارباب حتماً ولذلك ابتدعوا ربة للغضب والانتقام سموها نيميزيس ويذكرون لها قصصاً كالآتية مثلاً : ذلك ان بوليكراتس الظالم من اهل جزيرة سيسام خاف يوماً حسد الارباب اذ غدا ذا طول وحول وكان يملك خاتم ذهب له موقع كبير من نفسه فالقاه في اليم لئلا تكون سعادته مشوبة بالشقاء ثم ان صياداً احضر لبوليكراتس ذات يوم سمكة عظيمة وجد خاتمه في جوفها فكان ذلك بنظره شؤماً دالاً على وقوع المصيبة الاكيدة . فخوصر بعد في مدينته وأخذ وصلب وعاقبه ارباب يونان على سعادة ناله وحظ من النعم اصابه .

عرف بهذا ان الميثولوجيا اليونانية كانت عارية عن الاخلاق اذ كان الارباب قدوة سيئة للناس قال ذلك فلاسفة اليونان وضيقوا على الشعراء الذين نشروا هذه الحكايات وذكر احد تلاميذ فيثاغورس ان معلمه اطلع على الجحيم فرأى فيه روح هوميروس الشاعر مصلوبة في شجرة وروح ازيودس الشاعر مدلاة في دعامة عقوبة لما على اهانتهما الارباب

وقال كسينوفان ان هوميروس وازيودس قد نسبا للارباب اعمالاً من شأنها ان تكون عاراً بين البشر وشناراً عليهم وهناك إله واحد لا يشبه البشر باجسادها ولا بعقولها وكان يزيد على ذلك قوله : لو كان للبقر والاسود ايد واستطاعت ان تصور كالناس لصنعوا للارباب اجساداً تشبه اجسادهم ولجعلت الخيل للارباب اجساداً كالخيل والبقر. والناس يذهبون الى ان للارباب احساساً وصوتاً وجسداً. هذا قول كسينوفان وهو من الحق والعدل بمكان اذ قد جعل اليونان الأول اربابهم على صورهم مثل ما كانوا عليه في ذاك العهد سفاكين غدارين حسودين متجبين وكذلك كان اربابهم . ثم صاروا على نسبة التحسين في اخلاقهم ينشأ اخلاقهم متبرمين من هذه المبادىء كلها عازفين عنها ولكن تاريخ الارباب واخلاقهم كانت مقررة بحكايات قديمة اخذها اهل الاجيال الحديثة ولم يجرأوا على تغيير ارباب اجدادهم الفظة السفيهة بغيرها

بعض تباريح

« المعنى مأخوذ عن شاعر اميركاني »

حمامة هذا الفجر ويحك رفرفي ... لتلتقطي حب النجوم وطيري
لعل الصبا تندى على القلب ندوة ... لنفس وجدي اوتبل زفيري
فلي في الصبا شكوى ولي في الصبا هوى ... وبعض تباريح وبعض امور
تحرك نفسي كلما هفهفت وما ... نظن بانفاس وشعلة نور
فيامن لنفس كل شيء يهيجها ... الى اثر من لوعة وسرور
تلاقى اليها الحب من كل مذهب ... كما استهدفت فيه لكل مصير
فكيف انثنت تلقى الهوى او شعاعه ... لحاظاً والفاظاً ونور ثغور
كثير على نفسي همومي وحسبها ... على عنت الايام حمل عسير
تخالجني بالرغم يأس مبرح ... سوالف عيشي بعده وبسيري
وما انا مردود الى الرأي بعد ما ... تحكم طبعي واستمر مريري (١)
شجينا وباتوا قد خلت مهجاتهم ... على افق بادي الصفاء منير
وما في اكتئاب العشق حزن وانما ... لمعنى يرى في اللحظ بعض فتور

طنطا

مصطفى صادق الرافعي

(١) يقول الرجل استمر مريري اذا استحكم امره عليه وألفه

سير العلم

آثار رومانية

كان احد علماء الآثار من الطليان اكتشف منذ بضع سنين في فياسا كرا من جبال مدينة رومية مدافن قديمة جداً يرد عهدها الى ما قبل تأسيس رومية بقرون فاهتز لذلك العلماء والمؤرخون اذ ثبت لهم ان ما وجد في تلك المدافن من الخزف والحلي والتعاويذ وضروب الزينة التي زينت بها العظام هو مما يدل على ان هناك عنصراً وتمدناً يخالف العنصر الروماني وتمدنه . وقد عثر الآن في جبال بلاتين اي في تلك البقعة عينها على مدافن اخرى قديمة جداً ثبت ما كان ذهب اليه ذاك العالم الاثري وهي قبور على شكل آبار مثل قبور الفوروم وربما كان المدفون فيها اناس من سكان تلك البلاد الاصليين وما زال الحفر متتابعاً .

اميركا والفينيقيون

ما برح علماء الآثار يبحثون عمن سكن اميركا قبل القرون الوسطى قائلين انها عرفت قبل مكتشفها خريستوف كولمبس بنحو خمسة وعشرين قرناً لان الآثار التي وجدت في كثير من انحائها كالهياكل والاواني النحاسية والكتابات العبرانية تدل على انه سكنها ناس من العبرانيين او الفينيقيين والارجح انهم فينيقيون لان جميع الهياكل كانت ابوابها متجهة الى الشرق خاصة بعبادة الشمس على نحو الهياكل الفينيقية ووجد فيها صور بعض الحيوانات الكاسرة والداجنة منها ما عبد عند الفينيقيين ومنها ما اثرت عبادته عن قدماء المصريين ومعظم تلك العاديات اشبه بهياكل سورية وجنوبي اوربا وشمالي افريقية وغيرها من البلاد التي نزلها الفينيقيون واقاموا فيها متاجرهم فاستنتج من ذلك علماء الآثار ورجحوا ان الفينيقيين نزلوا اميركا كما نزلوا ايرلاندا في اقصى الشمال الغربي من اوربا وان اهل اميركا قبل الاكتشاف كانوا يعرفون ما عند الفينيقيين من الصنائع والدين واللغة وكلما ظهرت عاديات جديدة تجلت حقائق كثيرة وثبتت ثبوتاً لا مجال للشك فيه .

المنازل المهلكة

وضعت «المجلة» مقالة وصفت فيها المنازل الفقيرة في باريز بدأت فيها بما جاء في المثل الفارسي القديم « يدخل الطبيب احياناً الى الدار المحرومة من اضواء الشمس » وقالت ان الامراض المعدية ولا سيما السل لا تنتشر الا في الامكنة الندية التي لا تضربها اشعة الشمس ومن جراثيم هذا المرض تعيش اسابيع بل اشهراً في الظلام فاذا اقام امرؤ ضعيف

الجسم مستعد لهذا المرض الخبيث في غرفة معرضة للشمس يسلم من هذا المرض وعلى العكس تسرع اليه جراثيمه اذا جلس في مكان رطب لاشمس فيه ولا هواء ينفذ اليه حتى قال بعضهم ان السل هو من امراض الظلمة وقد اجمع اطباء الامم الباحثين في هذا الداء العياء على ان السبب الرئيسي في انتشاره فقدان النور والشمس من اكواخ الفقراء التي يحشر اليها العيال والاطفال وقالوا لا يكفي ان تكون غرفة النوم وردهة الاستقبال وغرفة الطعام معرضة للشمس بل انه لا بد من ان يكون المطبخ وكل مكان في البيت معرضاً لها ايضاً ولاجل السكنى في بيت ذي ثلاث طبقات ينبغي ان يكون قائماً على شارع عرضه من ١٥ الى ٢٠ متراً بحيث يغدو الهواء والشمس فيه وتروح . وقال كاتب المقالة انه يؤخذ من الاحصاء الذي جرى مدة عشر سنين في مساكن باريز وهي ٨٠ الف مسكن انه قضى بالسل ١٠١٤٩٦ شخصاً في ٢٣١٢٤ مسكناً منها ٥٢٦٣ مسكناً وقع فيها ٣٨ في المئة من مجموع من قضوا بالسل وثبت ان ٣٥٨ مسكناً من هذه المساكن كان فيها ٢٦٢٨ غرفة مسكونة لا هواء فيها ولا نور بالمرة وان ٨٣٠ مسكناً ينبغي ان تهدم حالاً لانها منبعث هذا الداء العقام . وقد قامت عدة جمعيات في فرنسا تدعو الى تطهير البيوت واختيار اماكن صحية للعمل والنوم والراحة في الليل والنهار . وفي المانيا مجالس بلدية تعطي التعليمات الصحية الكافية لكل مستأجر يريد ان يتخذ له مسكناً وتذكر له حسنات المسكن الذي يختاره وسيئاته لئلا يصاب واسرته بمرض عششت فيه جراثيمه وكذلك ترى في كثير من المدن مجالسها البلدية عارفة بالبيوت الملوثة والبيوت السليمة لتتوفر على محاربة جراثيم السل الرئوي . وفي مقالة ثانية ان السل يمكن شفاؤه اذا تدورك امره وانه ثبت ان الفقراء هم اكثر الناس عرضة له ففي المانيا يموت به ١١٠ آلاف نسمة منهم ٨٠ الفاً من الطبقات العاملة التي يقل دخلها عن الفي مارك في السنة

عادة الافيون

تعاقب اليابان متعاطي الافيون بالاشغال الشاقة وتختلف مدة ذلك باختلاف استهتاره واسترساله وقد اصدرت الصين في العهد الاخير امراً تقضي فيه على جميع بيوت الافيون العامة ان تصفي اشغالها وتقفل ابوابها واعطتها مهلة لذلك عشر سنين ولكن عادة الافيون التي يطاردها اهل الشرق الاقصى التي نشأت بينهم اصبح اهل اوربا يتساهلون معها بحيث يجري تناول الافيون جهاراً في العواصم والحكومات غافلة عن متعاطيها الذين اعتادوها في رحلاتهم الى الشرق مثل بعض الانكليز والفرنسيس وقد ارتأى احد اطباء الفرنسيس ان خير ما يعالج به متعاطي هذا المخدر ان يسجن في دار خاصة بامثاله ويقطع عنه الافيون دفعة

واحدة في الاسبوع الاول يشكو كثيرًا ثم يخف ألمه فتفقد ما كان ألفه وتسم به دمه لا كما يعامل الذين يستخدمون المورفين اذا أريد منعهم من تعاطيه بالتدرج معهم في نزع عادته منهم وهو يرى ان الافيرن كالاوبئة ينبغي مكافحتها بشدة زائدة وانه خطر اجتماعي لا يقل عن خطر المسكرات يعود باعظم الضرر على الجنس كما يعود على الشخص وعلى المجتمع كما على الأسرة .

الرعاد الجديد

اخترع احد رجال الانكليز رعادًا جديدًا يقطع في الدقيقة ١٢٠٠ متر وهي اعظم سرعة بلغتها السفن البخارية حتى الآن وسيحدث عنه تبديل في الملاحة الحربية وتتضاعف به قوة الغواصات .

ذرور اللحى

اخترع احد الانكليز ذرورًا للحى تستغني به بعد الآن عن استعمال المواسي في حلقها وهو يجعل مجونًا يمد على اللحية فتزول بالمال ولا يحتاج صاحبها إلاَّ الى غسلها بعد ذلك وقد جرب هذا الاختراع ونجح ويؤكدون انهُ من خير ما عرف من نوعه حتى الآن .

تأثير الشعراء

قالت بعض المجلات العلمية ان الشعراء في بعض ادوار الامم هم الذين ينشئون لغة بلادهم وعنهم تنبعث وبهم تهتدي فاللغة الالمانية الادبية الحقيقية نشأت من عهد كيتي وقد جعل دانتي الطلياني لهجة طوسكانيا لغة لايطاليا عامة وقد تبين لاحد الباحثين ان اشعار هوميروس اليوناني هي التي احكمت اللهجة الآشية في بلاد اليونان .

الطلبة في فرنسا

نشرت نظارة المعارف العامة في فرنسا احصاء بطلاب الكليات والمدارس الجامعة في هذه السنة فكانوا ٣٨ الفًا منهم ٣٣٠٠ انثى ونحو ٣٥٠٠ غير وطني ونصف هؤلاء الطلبة يتعلمون الحقوق بينهم نحو مئة طالبة وطلاب الطب اقل من طلاب الحقوق فيهم نحو الف طالبة وفي كلية باريز نصف طلاب فرنسا ثم تجيء كلية ليون وتولوز وبوردو

موت الاطفال

ينقص معدل الوفيات من الاطفال في معظم البلاد المتمدنة ولا سيما في المانيا وانكلترا ففي كل مئة طفل في المانيا يبلغ ٧٥ منهم السنة الاولى من اعمارهم . اما فرنسا فان ٨٧ في المئة يبلغون هذه السن .

عقل امبراطورة

امبراطورة اليابان من اعقل نساء الارض واكثر الملكات والامبراطورات عناية بالمسائل النسائية فهي محسنة كريمة تصرف القسم الاعظم من وقتها في الاختلاف الى المستشفيات والمدارس وقد انشأت للبنات كثيراً من المستشفيات الخاصة بهن وهي التي اسست منذ سنة ١٨٧٤ اول مدرسة لتخريج المعلمات في طوكيو اذ انها علمت بان المرأة اليابانية ينبغي لها ان تعضد زوجها في عمله لاصلاح حال اليابان .

سكر الفاكهة

يوصي علماء الصحة باستعمال السكر لمن يصرفون كثيراً من قواهم العضلية ليعوضهم عما فقدوه وقد رأوا الآن ان استعمال سكر القصب يهيج الغشاء المخاطي المعدي كما ظهر من تجارب كثيرة في الجند الالماني وانه يفضل استعمال السكر المصنوع من الثمار .

التآليف في أوربا

يؤخذ من الاحصاآت الاخيرة انه ظهر في المانيا في السنة الماضية ضعفا ما ظهر في فرنسا من المصنفات الادبية وانه كان حظ ايطاليا من ذلك حظ فرنسا تقريباً اما انكلترا فصدر فيها نصف ما صدر في فرنسا . وقد صدر في سنة ١٩٠١ نحو ٢٥ الف مصنف في المانيا و١١٠٠٠ في فرنسا ومثلها في ايطاليا و٦٠٠٠ في انكلترا . فكم تأليف صدر باللغة العربية يا ترى لغة نحو مئتين وخمسين مليوناً من المسلمين ولغة يقدر المتكلمون بها في افريقية وغربي آسيا بنحو ستين مليوناً .

الترجمة باليابانية

اكد احد علماء اليابان ان الترجمة من اللغات الاوربية الى اللغة اليابانية صعبة جداً ويصعب نقل جميع صور الالفاظ والمعاني كما يسهل نقل العلوم من لغة اوربية الى لغة مثلها ولو لم يكن في اللغة المنقول اليها نفس المفردات والاوضاع الموجودة في اللغة المنقول عنها وقال ان اللغة اليابانية اليوم عائقة عن ادخال اساليب الارتقاء الاوروبي وان لغة يابان غنية وفيها من الالفاظ والاساليب في الشعر ما لا يوجد مثله في لغة سواها والصعوبة في ذلك ان فيها لغة للكتابة ولغة للتكلم فهي من جهة ترسم التصوُّرات ومن جهة تنطق بها فمن المتعذر والحالة هذه رسم التصوّرات في مفردات مفهومة فما دامت الالفاظ تحول دون الترجمة الصحيحة يصعب ان تكون يابان في تمدنها كاهل اوربا كما تحب وترضى

صحة العيون

اثبت الدكتور كوليك مدير التربية الطبيعية في مدارس نيويورك بما قام به من التجارب العديدة ان لاضطراب النظر تأثيراً يلحق بالصحة واستنتج ان اجهاد العيون يضر بمجموع تركيب الانسان وقال ان العلماء هاكسلي وكارلايل ووالبيرز كان سبب هلاكهم سوء حالة عيونهم . ولا يزال هذا المرض يتزايد بتزايد الحالة الاجتماعية . ومعلوم ان عيون الحضري اعظم من عيون البدوي لما تتعرض له الاولى من القراءة والتحديق في الامور الدقيقة او الحروف السوداء على الورق على حين ان الثاني لا يقرأ ولا يكتب ولا يتعب نظره لانه يسرح بصره في الابعاد في هواء مطلق بدون ان يهيج اعصاب النظر واثبت الدكتور المشار اليه ان كثيراً من الامراض كالاوجاع الطبيعية والشقيقة وآلام المعدة مسببة من القراءة فلا تداوى الا بوضع المناظير على العيون . ومعظم الناس لا يحتاطون في قراءتهم ويجهلون بانه ينبغي ابداً اجتناب القراءة او العمل وهم على وضع يدخل النور الى عيونهم مباشرة على حين ان بؤبوء العين يتطلب نوراً معكوساً . ومن رأيه ان من يعنى بعينيه تجود صحته وغسلهما بالماء البارد حسن واحسن منه عدم تعريضهما لما يضرهما .

اكتشاف القطب

ستسافر هذه السنة بعثتان لاكتشاف القطب الشمالي علاوة على البعثتين اللتين سافرتا اليه فالبعثة الاولى برئاسة رجل دانيمركي تتولى البحث عما اذا لم يكن ارض غير معروفة في شمال الاسكا والثانية بزعامة امير من امراء الفرنسيس وهي ستتم ابحاث القبطان ايريشين في غروانلاند وترسم صورة جزء من الشاطئ الشمالي الشرقي من هذه الجزيرة . كما تسافر في هذا الصيف بعثة علمية الى القطب الجنوبي من طريق المحيط الهندي حتى تصل الى ارض فيكتوريا ومنها تنزل من السفن وتستعمل طريقة اخرى للنقل وربما استعمل الاتوموبيل في هذه الرحلة . وكان الرحالة روس وصل الى عرض ٧٨ في القرن الماضي واعلن انه يستحيل ان يتقدم المرء الى الامام ولكن الرحالة سكوت اكتشف سنة ١٩٠٢ و ١٩٠٣ بان وراء سد الثلج الذي منع روس من التقدم بقعة يمكن الوصول اليها على مراكب بلا عجل فبلغ بذلك درجة ٨٢ ودعا ذلك المكان باسم ادوارد السابع .

نور غير الشمس

الاسيتلين مادة من المواد التي تستعمل في انارة المصابيح . وقد ارتأى احدهم في اميركا بانه يمكن الاستغناء بها عن نور الشمس في زراعة النباتات ويمكن بواسطتها الحصول على نمو افرنكي جيد لطيف قبل موسمه بخمسة عشر يوماً

مطبوعات ومخطوطات

مجموع متون اصولية

لا يوجد فن من الفنون يتسع فيه مجال النظر مثل فن اصول الفقه ولذلك عني به اهل العلم والفت فيه كتب كثيرة ومن غرائب هذا الفن انه يتيسر ان تجمع اهم مسائله في ورقة او في ورقات ويمكن التوسع فيه حتى يكتب فيه في عشرة آلاف ورقة وهو كغيره من الفنون قد وقعت فيه كتب في غاية الجودة وكتب دون ذلك الا ان اكثر الكتب الجيدة كاد يفقد اثرها ومنها رسالة الامام الشافعي وهو اول من جمع مسائل هذا الفن . واكثرما عني به المتأخرون كتب في غاية الايجاز تعد عبارتها من قبيل الالغاز فكان المبتدئ يبتدئ بها مع انها لم توضع له البتة فحدث من ذلك انه هجر هذا الفن حتى ان كثيراً من الحواضر لا يوجد بها من له المام به . ولقد حاول بعض افاضل العلماء ان يبحثوا عن كتب جعلت للمبتدي حتى اذا قرأها اولاً هان عليه الامر فيما بعد . ومن اعظم من قام بهذا الامر الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء دمشق فقد انتخب اولاً اربع رسائل من احسن رسائل هذا الفن وكتب عليها حواشي نافعة بحيث تكشف الغطاء في كثير من المواضع ولم يكفه ما فعل اولاً حتى اتبعها ثانياً برسائل اربع في مذاهب الائمة الاربعة وحشاها كذلك . وقد وصلنا هذا المجموع وهو مشتمل على مختصر المنار لزين الدين الحلبي الحنفي المتوفى سنة ٨٠٨ والورقات لامام الحرمين ضياء الدين الجويني الشافعي المتوفى سنة ٤٧٨ ومختصر تنقيح الفصول لشهاب الدين القرافي المالكي المتوفى سنة ٦٨٤ وقواعد الاصول لصفي الدين البغدادي الحنبلي المتوفى سنة ٧٣٩ طبعت هذه الرسائل على نفقة محمد افندي هاشم الكتبي وتطلب من مكتبته في دمشق وهي في زهاء ١٥٠ صفحة منصفة القطع .

البريد المصري

اتانا تقرير مصلحة البريد المصري عن سنة ١٩٠٦ فاستفدنا منه اموراً كثيرة تدل على حياة القطر منها انه بلغ عدد المراسلات التي اصدرتها ادارة البريد في السنة الماضية ٥٨٠٠٠٠٠٠ رسالة وكانت في السنة التي قبلها ٥٠٧٧٠٠٠٠ رسالة فتكون الزيادة ١٤ في المئة . وكانت الزيادة عامة لجميع انواع المراسلات المتبادلة في القطر مع البلدان الخارجية ولا سيما المراسلات المسجلة داخل القطر اذ زادت ٧٠ في المئة والسبب الاكبر في ذلك تخفيض رسوم التسجيل داخل القطر من اول يناير سنة ١٩٠١ من ١٠ الى ٥ مليمات عن كل مراسلة . وبلغ ما صدر بواسطة البريد من حوالات وصرر نقود داخل القطر ٢٣٣٥٨٠٠٠ ج . م مقابل ٢٢٠٨٠٠٠٠ في سنة ١٩٠٥ وبلغ عدد الحوالات التي تبودلت

مع الجهات الخارجية ١٩٧٥٠٠ حوالة تبلغ ٧٩٦٩٠٠ ج . م وبلغ عدد الطرود المرسلة ٨٥٦٠٠٠ طرد مقابل ٧٥١ الفاً في السنة التي قبلها وتقدم عدد الطرود المحول عليها من ٧٧ الفاً سنة ١٩٠٥ الى ٨٥٨٠٠ سنة ١٩٠٦ واحدث في القطر ١٦٨ جية تابريد فصارت ادارات البرد فيه ١٢٤٩ وزاد عدد مودعي النقود في صندوق التوفير فكان ٥٩٠٨٥ شخصاً منهم ٤٣٨٧٧ وطنيون و١٥٢٠٧ اجانب وكان عددهم سنة ١٩٠٥ ١٠٤١١ من الوطنيين و١٣٠١٣ من الاجانب فمعدل الزيادة ٤٠ في المئة وأنشئت فروع جديدة لصندوق التوفير في ٢١ مكتباً في تلك السنة فاصبحت فروعه ١٤٢ وانشئت صناديق توفير للاحداث فبلغ عدد الموفرين فيه منهم ٤٢٢٥ وبلغت ايرادات ديوان البريد ٢٣٧٠٩٧ ج . م وكانت في السنة التي قبلها ٢١٥٩١٧ وبلغت المصروفات ١٨٥١٧٦ ج . م وكانت ١٤٩٦٥٦ في سنة ١٩٠٥ فيكون مقدار زيادة الايرادات على المصروفات ٥١٩٢١ ج . م فزادت بذلك وارداتها اكثر من الضعف في مدة العشرين سنة الماضية على ما ادخل في خلال هذه المدة من تخفيض الرسوم على المراسلات بفضل انتباه مصلح هذه المصلحة يوسف سابا باشا .

الانسانية

هي المجلة العلمية التهذيبية الفكاهية الدينية الادبية التي تصدر في غرة كل شهر لصاحبها الشيخ ابراهيم الدباغ كان اصدر منها خمسة اجزاء وتوقف مدة عن اصدارها واماما الآن الجزء السادس من سنتها الاولى وفيه كلمة افتتاح لطيفة الاسلوب فيها تصريح محزن بكساد بضاعة الافلام ومقالة « اعتدل في الانسانية » لعبدالقادر افندي المغربي ومقالة « مناحي المنشئين » للسيد حسين وصفي رضا وغير ذلك من المقالات والشذرات الفكاهية والادبية التي تدل على سلامة ذوق كاتبها وادبه وفضل مؤازريه وانصاره فنرجو للانسانية الانتشار في جميع الاقطار وقيمة اشتراكها ٦٠ قرشاً اميرياً في السنة و ٣٠ قرشاً لطلبة العلم وهو قدر زهيد اذا قيس بفوائدها .

السند

هي رسالة للمحامي بك ابراهيم خلف اللبناني فيها اهم الملاحظات في احكام السند والسفتجة والحوالة وصور كثيرة منها ومن الصكوك والاستدعاآت ومعاملة دائرة الاجراء وتعليمات محرري المقاولات وقانون الافلاس وغير ذلك من المسائل التي تهم من يجب الاطلاع على المسائل العدلية في البلاد العثمانية ولا سيما العربية منها وان شئت فقل اللبنانية وقد الحقها بجدول باسماء قرى لبنان مرتب على حروف المعجم مع الاشارة الى القصبة والمديرية والقضاء التابعة لها كما الحق بها متن الرحبية في الفرائض لابي عبدالله محمد الرحبي المعروف بابن التقية

المترجم

Le Traducteur, à La Chaux-de-fonds Suisse

المترجم مجلة نصف شهرية لدرس اللغتين الالمانية والافرنسية تصدر في سويسرا وفيها كل جملة وترجمتها مقابلها عمود افرنسي وعمود المذي وموادها عبارة عن قصص وحكم وامثلة علمية وادبية وفي كل جزء منها جانب عظيم من الكلمات التي يسهل استخدامها وقد وافتنا الاجزاء العشرة التي صدرت منها وتصفحناها كلها . وهي في ١٦٠ صفحة وقيمة اشتراكها اربعة فرنكات وخمسة سانتيمات فنحث عشاق هاتين اللغتين على اقتنائها ولاسيما الالمانية فان العارفين بها بيننا قلائل جداً فلو تعلم احدهم مبادىء قراءتها وكتابتها لسهل عليه احكامها بواسطة هذه المجلة .

وصايا للطبيب

من كتاب الاصول لعلي بن رضوان المتوفى سنة ثلث وخمسين واربعمائة .

الطبيب على رأي بقراط هو الذي اجتمعت فيه سبع خصال (الاولى) ان يكون تام الخلق صحيح الاعضاء حسن الذكاء جيد الروية عاقلاً ذكوراً خبير الطبع

(الثانية) ان يكون حسن الملبس طيب الرائحة نظيف البدن والثوب

(الثالثة) ان يكون كتوماً لاسرار المرضى لا يبوح بشيء من امراضهم

(الرابعة) ان تكون رغبته في ابراء المرض اكثر من رغبته فيما يلتمسه من الاجرة ورغبته في علاج الفقراء اكثر من رغبته في علاج الاغنياء

(الخامسة) ان يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس

(السادسة) ان يكون سليم القلب عفيف النظر صادق اللهجة لا يخطر بباله شيء من امور النساء والاموال التي شاهدها في منازل الاغنياء فضلاً عن ان يتعرض لشيء منها

(السابعة) ان يكون مأموناً ثقة على الارواح والاموال لا يصف دواء قتالاً ولا يعلمه ولا دواء يعالج الاجنة يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه اه

فجائع البائسين

« تابع ما قبله »

٨

بعد ما قبرت شهيرة ابنها انشأت تفكر فيما يؤول اليه امرها لانها ادركت انقطاع اجرة الحضانة وزوال العلاقة التي كانت تربطها بسعيد ولم يبق بينهما غير عقد الزوجية فادركت ايضاً ان استصدار الحكم عليه بمائة ليرة يمنعه عن الطلاق اذا ارادت ان يطلقها فما وجدت انفع من الرجوع اليه والرضا به وكان بلغها انه يسعى في زواج غيرها فاضربت لامها عما يخالج ضميرها وقالت لها إنها تود الرجوع الى زوجها قبل ان يقترن بغيرها فآخذتها على افكارها وطمنتها بقولها : انه لا يقدر على الزواج لان الناس علموا بما جرى بينكما فيخافون على بناتهم من ان يصرن الى ماصار اليه امرك . ثم قالت : وليس كل الناس مثلنا قليلي العقل والبصيرة .

— ماذا جرى لي حتى يمتنع الناس عن تزويجه بناتهم اما كنت انت السبب في تنافرنا ونحن كنا راضين من بعضنا وكان الصفاء ملازمنا والهناء يرافقنا فانت التي كدرت صفاءنا بتصوراتك الدنيئة فلو كنت تركتينا وشأننا لما حدث شيء بيننا ولكن طمعك الذي ادّى بنا الى الفراق وبعث فينا روح الشقاق فاسألك بابيك ماذا تبغين مني ؟ ألست بالغة سن الرشد والكمال ؟ فلماذا لا تتركينني حرة في اعمالي اتصرف بها كما اشاء ؟ فان كان قصدك قتلي وهلاكي فبئست الامهات اللواتي تبدلن سعادة بناتهن بالشقاء واني لا ادرك غرضك من افتراقنا مع اننا كنا على وئام وسلام يحسدنا عليهما من سمع بما قامت عليه قواعد ائتلافنا

— مالي اراك اليوم تشتاقين الى زوجك الذي هو مطية العار فلا عاش الرجال ؟

— لم ار سبة يانسابي اليه اما انت التي سعيت في زواجي به ؟ وهل كان مجهول الاحوال لديك ولدى اخي الذي رافقه ثماني سنين وانا على علم من انه لا يزال كما كان عليه من قبل وما يخيل لي ان احداً مثلي بين الناس قبلي رأيت ام سمعت برجل يعامل امرأته بالمساواة ويسعى فيما يرضيها بكل ما امكنه في هذه البلاد ؟ من لي برجل يعاملني هذه المعاملة الحسنة ؟ على اني اعجب من اعمالك مع اصهارك . الست انت التي كنت سبباً في طلاق أختي حتى اصبحت محرومة من الزواج ؟ وهي لا تزال في كمد واسف على زوجها مع اني اعلم ويعلم كل انسان ان الامهات تحب اصهارهن اكثر من بناتهن وانت على العكس

تبغضينهم تنفرينهم من بناتك حتى تحرميهن منهم . اما سمعت قول بديعة التي طلبت اختي الصغيرة انها اعجبتها وودت تزويجها بابنها ولكنها خافت على ابنها منك فها انت قد اشتهرت بين الناس بسوء الخلق وردىء الطباع

— لقد تجاوزت حدك ياشبيرة فانت لاتزالين في سن الطفولية لاتميزين الصالح من الطالح وانا أخطأت بقبول سعيد زوجاً لك ولكني سأجتهد في التكفير عن خطئي واصلاحه فلا تأسفين على هذا الرجل الدنيء الاصل الفقير الحال وايقني انه عندما يثبت طلاقك ازوجك وتعيشين معه عيشة لا يشوبها كدر ولا يتخللها شقاء . او تحسبين اننا في خطر من الرجال ؟

— اما تتقين الله في سعيك لاثبات طلاق لااصل له وهب انك وفقت الى اثباته بشهادة شهود الزور والبهتان وحكم القاضي بتفريقنا واعطاني اعلاماً شرعياً باني مطلقة فهل يكون الطلاق موافقاً لحقيقة الشرع الشريف

— لا ! ولكن نكون اخذنا لك مائة ليرة

— فاذا كنت لاازال على عصمته كيف يتسنى لي ان اتزوج بغيره

— تتزوجين باعلام الحاكم وحكم الحاكم امر مقضي بعمل به ويقوم مقام الطلاق

— في اي ديانة واي شريعة وجدت هذا الجواز وهذا الحكم المعقول او تحسبين اني لااخاف الله تعالى بانتقالي الى عصمة رجل وانا على عصمة غيره فاذا كان طمعك بالمائة ليرة التي تودين اخذها زوراً وبهتاناً فلا حاجة لي بها ولا اود ان اعصي الخالق طمعاً في حطام الدنيا أو نسيت ان من يغتنون الدراهم بطرق غير مشروعة لا يصرفونها الاَّ على امراضهم و يدفعونها ثمن ادوية واجرة اطباء وهم يقضون آخر ايام حياتهم في انحس الاحوال وقد يتمنون الموت فلا يجدونه واذا تزوج زوجي وهجرني هجراً نهائياً كيف تصير حالي فهل لي حينئذ سوى البكاء والنحيب حتى تستولي عليَّ الامراض وارزح في فراش الاسقام والعلل فاموت شهيدة سوء تصرفك

— انت تظنين انه يتزوج و يطيق هجرك . ستريين انه متى يئس من الزواج بتوسطك من يرجعك اليه و يدخل تحت حكمنا فنتصرف به كما نشاء

— انت تحسبين انه لا يتمكن من الزواج واذا شعرت بانه سيوفق لأن كثرة البنات و بقاءهن من غير زواج وفساد هذا العصر يدعو العقلاء للتساهل في زواج بناتهم وانا على يقين من انه سيهجرني فاما ان اموت واما ان ارجع اليه من هذا التشوز فاكون تحت سيطرة امرأته الجديدة فان مت تكونين انت الجانية عليَّ وان رجعت اليه تكونين سبب بؤسي وشقائي بعد ما كنت سعيدة

لقد فهمت انك تودين الرجوع اليه قاتل الله بنات هذا العصر اللواتي لا يطقن الحجر ساعة — فليخطر ببالك ما تشائين فاني اعزد واحب الرجوع اليه قبل ان يتزوج

ثم قامت وتركت أمها ودخلت حجرتها واغلقت الباب عليها واخذت تبكي وتندب حظها وتلوم نفسها على اطاعة امها

مضت على هذه المحاورة هنيهة وجيزة فدخلت على شهيرة احدى صويحباتها التي كانت تتنسم الاخبار عن زوجها وتأتيها بها فقالت لها اتدرين ماذا جرى ؟ قالت : لا

ان سعيداً عقد لهُ على جميلة خانم ابنة علي باشا فصاحت قائلة : آه . واغمي عليها . فندمت هذه على اخبارها ثم اتت بالماء والعطريات ورشت على وجهها وجعلت تفرك يديها وتدغكها حتى تنبهت فاخذت تبكي وتلعن امها التي سببت لها هذه النقمة وتفكر فيما حلّ بها فايقنت انها ستفارقه ابد الدهر وانه سيحتفظ بعد الآن بود جميلة خانم ولا يسأل عنها وقد دخلت امها فاخبرتها بواقعة الحال وقالت لها : كنت تظنين انه لا يتزوج فها هو قد اقترن باحسن ابنة في بلدنا فانقطع املي بلقائه واظن انه لا يطلقني ولا يأخذني اليه الا اذا رقت زوجته لحالي فاكون تحت امرها وارادتها فهذه نتيجة اعمالك القبيحة

فأدركت امها خطأها وأخذت تلطفها بالكلام وتعدها بالآمال ثم دعت ابنها رفيقاً وعزموا على اقامة دعوى الطلاق مرة ثانية واتوا بشهود غير الاولين وعينوا يوم الجلسة يوم عرسه لينغصوه وظنوا انهم يوفقون الى اخذ الحكم عليه فيكون يوم عرسه يوم نحسه ولم يدر في خلدهم ان يوم عرس المرء في غالب الاحوال يكون يوماً مباركاً ولا يخطر ببال العروسين سوى السعادة ففرح بما اتوه ولم يتنغص وايقن انه سينتصر عليهم لانهم حضروا الدعوى في يوم كان عنده اشرف الايام واحسن يوم وصاله ونيل آماله فذهب رحيب الصدر عالي الهمة ودخل المحكمة فأقيمت الدعوى وضبطت الافادات فشهد الشهود بما علموا لا بما عملوا فجرح شهادتهم واقام البراهين فانتصر عليهم واخذ الحكم مرة ثانية بوجود الزواج وعاد رابحاً ورجعوا خائبين وكان ما كان . فاستولى الكدر على شهيرة واعترها الارق ولازمها الحزن والبكاء فنحل جسمها وتبدلت الوانها وضعفت قواها فسطت جراثيم السل على كريانها البيضاء فعطل جهاز التنفس وخرب الرئتين فمنع تطهير الدم من الحامض انكاربونيك فتبدلت حمرة خدها بالاصفرار وأخذت وطأة المرض تزداد عليها يوماً فيوماً فماتت شهيدة ضعف الارادة وسوء التصرف ولم أخوها خطأه ولكنه حمل الذنب على سعيد وعزم على الانتقام منه بدلاً من أمه الجانية . ولما بلغ سعيداً موت شهيرة أسف لها وحزن عليها وبكى بكاء دعا الى كدر جميلة ولكن اعتذرت له واقسم الايمان على ان بكاءه كان من قبيل الاسف على ما عانته من العذاب والشقاء .

وما تخلص سعيد من كل منغص ايقن انه لم يبق عنده شك ولا شبهة في السعادة التي كان يسعى اليها فاتسعت آماله وصار لا يفكر الا في السعادة وصار لا يرى الا ضاحكاً مسروراً وقد نسي ما اتى عليه من قبل وظن انه خلق سعيداً وعاش سعيداً وسيموت سعيداً ولكن فاته قول الشاعر :

وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وذلك ان سعيداً بينما كان راكباً عربته يتجول بها على ساحل البحر في رأس بيروت ويتطلع الى الاوانس اللواتي تتزين لتسحر الالباب وتطغي الشباب ممن يسابقونهن في الزينة والتبرج وسرعة الانتقال من زي الى آخر وهما فريقان بين ساحر ومسحور وعاشق ومعشوق او عاشق محروم وعجوز تفكر في ايام صباها يوم كان الشبان يلتفون من حولها متسابقين في استجلاب قلبها وكان صاحبنا يأسف لذلك العاشق المحروم ويضحك من تلك العجوز الشمطاء التي صبغت شعرها وبيضت وجهها بالذرور ولوّنت خدودها بالصباغ الاحمر لترجع فتاة « وهل يصلح العطار ما افسد الدهر » ويلوم تلك الغادة الدعجاء التي زين الخالق جمالها بعيون نجل تكاد تفتت الاكباد على ما شوهت به نور وجهها من الذرور لتجعله ابيض ولو تركته على طبيعته لكان اجمل وقد تؤثر فيها شدة حرارة بيروت فيكللها العرق ويرسم خطوطاً في غضون خدها المبيض بالبزموت فتشعر بذلك او تنبهها رفيقتها فتخرج منديلا من جيبها مليء بالذرور فتمسح وجهها كأنها تمسح العرق .

ويضحك من الشبان الذين حرمهم الله من نعمة الجمال عند ما يراهم يرفعون سبلاتهم وشواربهم وينزلون طرابيشهم ليستعطفوا قلوب الفادات وربما التفتت اليهم واحدة من قبيل الصدقة والاحسان فيظن ذلك انه اعجبها بطوره وجماله .

ويزداد ضحكه عند ما يرى ذلك الشاب الذي اذا رأى سيدة احنت رأسها لحفرة في الارض رفعت العربة فكان الانحناء اضطرارياً يظن ان ذلك كان منها للسلام عليه فيحني رأسه فتضحك من جهله ويحسب ذلك تبسما والتفاتاً ويذكر حينئذٍ قول شوقي

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ويقول لرفيقه لم يبق بيني وبينها الا الكلام والكلام يجر ما بعده . ويعجب لذلك الفتى الذي لو رأى الآنسة تصلح شعرها بيدها او ترفع غرتها عن جبينها لظن ذلك سلاماً له ووضع يده على رأسه كأنه يرد السلام بدون ان يشعر به حدسوه على مكانتهم وفي لا تبالي به ولا تنظر اليه .

وبكى اسفاً على المومسات اللواتي خرجن بقلدن كبيرات العقائل بلبسهن ليجلبن قلوب

الشبان ويعشن بتمزيق ثوب عفتهن ونقدهن بدلها دراهم معدودة على انهن يظهرن المحبة لمن لا يطقن ان يراه ولذلك لا يجدر بالعاقل ان ينظر اليهن بعين الكبر والغرور ويهينهن من اجل بيع شرفهن وعفتهن لمن يردنه اولا يردنه فلو فحص عن الاسباب التي ساقتهن الى ادنى المتاجر لما تأخر عن العذر ووجه سهام الملام نحو غيرهن

ومما كان يأسف له سعيد ما يراه من الشبان الذين لو رأيتهم ونظرت الى لباسهم لحسبتهم من ابناء اغنى الأسر في بيروت على انهم لا يملكون سوى راتبهم الذي لا يتجاوز ثلاث ليرات يأخذونها من الاستخدام في مخزن او متجر ولا يجدون حرجاً في التشبه بالاغنياء وتراهم ابداً شاكين باكين من قلة الدراهم وقد يتخيلون السعادة ولكنهم لا يجدون لها اثراً الا في اميركا فيها جرون اليها وقد يموت الكثير منهم من الجوع او يرجعون ملومين مدحورين

بينا كان سعيد يفكر في الهيئة الاجتماعية ويتأمل هذا المعرض البديع اتاه الخادم مسرعاً فقال له ان سعادة الباشا اتى من سفره وهو مريض مرضاً شديداً فذعر لهذا الخبر ورجع الى المنزل مسرعاً وكان الاطباء اتوا ومرضوه فلازم فراشه واخذ سعيد يستقبل العواد ولكن المرض اخذ في الازدياد حتى قضى الباشا وانتقل الى رحمة الله فجهزه ووارى التراب واحتفل بمأتمه احتفال الابن البار بوالده الفقيد . وهنا انكسفت شمس آمال سعيد وخاف من رجوعه الى البؤس والشقاء لان الباشا كان مستقيم المبدإ فلم يترك لوارثيه سوى الدين واثاث البيت . وحسب صاحبنا الراتب الذي ستناله حماته زوجة الباشا فبلغ ألفي قرش فاطمأن بعض الاطمئنان وأدرك انه لا يزال في عيشة راضية وكانت حملت منه جميلة فصار يفكر في ولده وصار البحث بينه وبينها على ابنهما الذي سيصرفان في تربيته مزيد العناية ليأتي منه انموذج الكمال ومثال الادب ويعلمانه حقائق العلوم في طفوليته ليشب على حب العلم ويتعرى من كل خزافة وقرر ا تلقينه نواجم احوال اعاظم الرجال وافهامهم وحقائق الكائنات وانشآ يربآن به عن سماع القصص والحكايات المشوبة بالاكاذيب والعجائب ولما قرب وقت الوضع اخذ سعيد يستجلب الكتب المدونة في تربية الاطفال فيقرؤها هو وامرأته ويعينان الخطة التي يجريان عليها في تربية ثمرة غرامهما حتى وضعت له انثى حسنة الخلق اشبه به من امها فسمياها (جميلة) فعلما تكون مبشرة بالخير وفرحا بها كثيراً ولكنه لم تقض عليهما هنيهة من الزمان حتى فاجأتهما وفاة الخاتم الكبيرة وانقطع الراتب فاصبحت الأسرة حملاً على سعيد ولم يبق لها من ايراد سوى راتبه وهو الف قرش فصرف ما جمعه واقتصده وباع الحصانين لعجزه عن القيام بنفقتهما ورجع الى عالم الاقتصاد والادارة ومع هذا كله كان يمالئ النفس بطهارة بيته من الادناس ويرمي نفسه في راحة من كل عناء .

١٥

في يوم سكنت نأمة النسيم وهب ريح الصبا اعترى صدر سعيد ضيق ساقه الى التنزه فبحث عن صديق له ليذهب معه الى قرية من القرى النزهة واذ لم يوفق الى صاحب يرافقه ذهب برأسه واخبر جميلة بذهابه وكان خرج على حصان استأجره فبينما هو يجد في المسير فاجأه رجل كان يعرفه من اقارب رفيق فسلم عليه كأنه اخ حميم ثم سأله عن سفره فاجابه بما قصد فطلب رفقته فقبله وشكر له فضله وقال انه كان يود ان يجد له رفيقاً يتسلى معه فنعمت الصدفة ثم اخذا يقطعان الطريق رويداً رويداً وكان الحديث بينهما عن شهيرة فصار ذلك الرفيق يؤاخذ سعيداً وينسب اليه القصور وهذا يعتذر ويرجع بالذنب الى امها والى رفيق فما كان من هذا الخبيث الا ان اخرج غدارته واطلق الرصاص عليه قائلاً خذها جزاء عملك بشهيرة فاصاب قلبه فوقع في الارض يقول : آه قتلتني ياخائن . وكانت هذه العبارة آخر كلامه ثم ذهب ذلك اللعين الى مدير الناحية واخبره بانه حدث قتل في المحل الفلاني ففرح المدير لذلك بمجيء الرزق ولكنه لم يكن عنده من انفار الدرك احد لانهم ذهبوا الى القرى يستنشقون اخبار الوقوعات التي حدثت بين الاهالي لانهم اصبحوا بفضل مديرهم يرضون بغدر يقع بينهم واعتداء بعضهم على الآخر لانه لا يستنكف من اخذ الدراهم من الشاكي والمشتكى عليه واصبح من اصابه حيف من جاره يغضي على القذى ويحتمل مصابه بالصبر فانقطعت عنه الواردات فجعل يرسل الدرك والجواسيس ليستطلعوا طلع الوقائع ويأتي باصحاب الحقوق ويدعوهم الى اقامة القضايا فينكرون ذلك وهو بين معلم لهم على حقوقهم ومهدد ان لم يقيموا الدعوى فارسل يستدعي انفار الدرك واخذ يجمع من مرّ على القنيل وتكلم معه او رآه او سمع به ويحبس من يشاء ويضرب من يشاء ويترك من يدفع له فدية النجاة وكان معظم مساعيه في جمع الدراهم لا في اثبات الجرم ولكن اعتراف الجاني بانه كان اخرج غدارته ليراها سعيد فخرجت الخرطوشة من نفسها خطأ وكان سمع (لاعلم لانه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب) ان المخطيء ينجو من العقاب فلم يسعه الا القاء القبض عليه وارساله الى حاضرة الولاية مع محضر التحقيق . ونقل سعيد الى داره مضرجاً بدمه فلما طرق الباب خرجت الخادمة وفتحت الباب فوجدت سيدها قتيلاً محمولاً في محفة فصاحت ووقعت على الارض مغمى عليها فسمعت سيدتها صيحتها وشعرت باضطراب وارتعدت فرائصها فهمت لتذهب فما تمكنت لانخلال قواها ولكنها جسرت نفسها فسعت ترى ماذا جرى فوجدت رفيقها محمولاً على الاكتاف في لون اصفر والدم خضب وجهه وفمه وصبغ بأسه ولا حركة به فسقطت على الارض لا حراك بها . وكان الجيران دخلوا البيت فاخذوا ينبهون

جميلة من غشيتها وادخلوا القتيل غرفته ووضعوه على فراشه وبدأ البكاء والنحيب وكان الناس هناك نساء ورجالاً يبكون دماً على هذا الفتى البائس الذي لم يسمع عنه الا الفضائل وما عرف الا بالكمال واللطف وحسن الخلق وابن العريكة وابن طيب البلدية والمستنطق ومعاون المدعي العمومي وعاينوه وامروا بغسله ودفنه فغسلوه وكفنوه وحملوه على الاعناق ليواروه ترابه. ولبؤسه حتى يوم مماته لم يكن في المدينة من اصدقائه احد غير فتى قام بواجباته نحوه ومما ذكر ذلك الصديق انه رأى خيرية ابنة سعيد على يد الخادم تضحك وتقول (باء باء ئوئو دح ئوئو ؟) كأنها عرفت ان اباها نام نومة ابدية وعلمت ان الكفن لباساً جديداً وانه دخل في حياة جديدة وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء فلسان حالها يهنئه على خلاصه من البؤس والشقاء وكأنها تقول : انت ذهبت وتركتني انا وامي وعمتي وجدتي في عذاب أليم فهنيئاً لك وبؤساً لنا واسفاً علينا . قال الصديق فما تمثل لي ماحل بهذه الأسرة التعسة ورأيت ابتسامة تلك الفتاة زاد تأثري وبكائي من مشاهدة هذه الفاجعة المدهشة .

فهذا سعيد ولد بائساً فسعد بالاسم وعاش شقياً فسعد بالخيال والآمال ومات تعساً فسعد بالخلاص من العناء والشقاء فرحمة الله على روحه الطاهرة .

***

اخذت العدلية تنظر في القضية فما وجدت باوراق المدير ما يدل على ثبوت الجرم فشرعت بالتحقيقات وثبت لديها وجود عداوة وضغائن وعلمت بان الفعل نتج عن قصد كما ادعت زوجة سعيد ان القاتل الحقيقي هو رفيق وذلك انتصاراً لأخته التي قتلها هو وامه بسوء تصرفه ولكن نتيجة المحاكمة كان الحكم فيها باكثرية الآراء على القاتل بالحبس ثلاث سنوات . والله يقتص من عباده باعمالهم وهو العليم الحكيم اه